
روايات الهلال
ليلة القدر
قوت القلوب الدمرداشية





سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصـــدر عن مـــؤســـســـة دارالـهـــلال



الغلاف و رسومات داخلية:
علىد ســــوقى

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٧٢٩
سبتمبره ٢٠٠٩م
رمضان١٤٣٠هـ
توت ١٧٢٦ق

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ٢٥٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٥,٠ دولار - سويسرا ٦ فرنكات - السودان ٢,٥ جنيه

البريد الإلكترونى
darhilal @ idsc.gov.eg

الاشتراكات
قيمة الاشتراك السنوي (١٢عددا) ٦٠جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقـداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقي دول العالم ٦٠ دولارا، القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دارالهـلال .

بريد الاشتراكات
Email : subscription_dep@yahoo.com

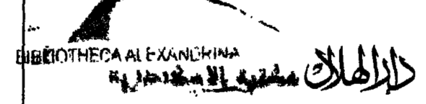
الإدارة
القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469



ليلة القدر

تاليف :
قوت القلوب الدمرداشية

ترجمة:
ميرفت شيخون



دار الهلال

دار الهلال

إسم الرواية : ليلة القدر

تاليف : قوت القلوب الدمرداشية

ترجمة: ميرفت شيخون

إشراف : محمود قاسم

الخطوط : محمد العيسوى

رقم الإيداع :١٥٠٤٣ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى I . S . B . N: 977-07-1366-x

قبل أن تقرأ

صارت هذه الرواية غريبة إلى أن قُمنا بإصدارها باللغة العربية. هذه الرواية التى صدرت فى مصر باللغة الفرنسية عام ١٩٥٤ ، لم تترجم إلى اللغة العربية من قبل، كما أنها لم تُقرأ لدى الفرنسيين أنفسهم. إنها رواية مكتوبة فى المقام الأول للعرب الذين يكتبون ويقرءون باللغة الفرنسية، وهم فئة قليلة كانت موجودة بقوة فى الثقافة المصرية طوال النصف الأول من القرن العشرين، وتقلصت أعدادهم وتقلص حضورهم فى الثقافة المصرية عقب قيام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .

ومن بين هؤلاء قوت القلوب الدمرداشية، التى قدمت لها روايات الهلال فيما قبل عملين مميزين لاقيا قبول القراء العرب.. هما «رمزة» ، و«زنوبة». ولأن هذه الروايات موجودة فى منطقة معتمة من خريطة الإبداع العربى فإن روايات. الهلال حريصة على ترجمة هذا العمل بكامله إلى القارئ العربى.. ومن المهم أيضاً التعرف إلى من تكون الكاتبة. هى.. قوت القلوب الدمرداشية واحدة من شهيرات الكاتبات المصريات اللائى يكتبن باللغة الفرنسية، كما أنها من أوائل سيدات المجتمع المصرى اللائى آمن بقيمة الكلمة، وفتحت بيتها ليكون صالوناً أدبياً يأتى إليه أبناء المجتمع البارزون من الرجال والنساء. ولم تكن قوت القلوب امرأة متفرنسة، بل هى امرأة مصرية، سواء فى الدور الذى قامت به اجتماعياً، أو فى أدبها الذى لم يجد طريقه إلى اللغة العربية، مما ساعد على أن تصبح مجرد شخصية هامشية، بل يكاد لا يكون لها

وجـود فى خـريطة هذا الأدب، والسـبب بالـغ البـسـاطة، أن رواياتهـا، وقصصها القصيـرة لم تترجم حتى الآن إلى اللغة العربية، شأنها فى ذلك شأن كل أقرانها الذين كانت هناك أيدٍ خفية لوضعهم وراء الهامش بحجة أن لغة الإبداع عندهم غير عربية. ولذا، مرت السنون الطويلة، دون أن ينتبه الناس إلى هذا الأدب، وأصبح من الأهمية بمكان إلقاء الضوء على هؤلاء الكُتاب وخاصـة أن المراجع التى يمكن للمـرء الرجـوع إليـهـا لمعرفة المزيد عن هؤلاء الأدباء كثيرة باللغة الفرنسية.

وتكاد تكون قوت القلوب هى الأديبـة الوحيدة التـى ارتبطت رواياتهـا بـالأجـواء الشـرقـيـة، وعـالم النسـاء فى الحـريم، وقـد امـتزجت أجـواؤها أيضاً بالصوفيـة، وهو ليس أمراً غريبـاً على امرأة عـاشت فى أسرة متصوفة شهيرة. وقوت القلوب المولودة فى أواخـر عـام ١٨٩٢ تنتـمى إلى أسـرة تتحـدر من سلالة أحـد أمـراء المـمـاليك. هذا المملوك بدوره قـادم من القـوقـاز مع العثمانيين الذين أتوا إلى مصـر عـام ١٥١٧ . وقد حملت هذه الأسـرة اسم «تيـمـور تاش» والذى تحـول بمرور الوقت إلى الدمـرداشـيـة، وتقـول عن أبيـهـا فى روايتـهـا «ليلة المصير» المنشورة فى باريس عـام ١٩٥٤: «كان مـعروفاً بحكمتـه، ينمى فينا حب عـاداتنا، دون أن يعرفنا أهمية التربيـة الحديثة. فإلى أبى الذى ظل شيخاً طوال سبعين عاما وأعطانى النموذج الحى للرحمة».

وقد كـتب نـاصـر الدين النشـاشـيبى فصلاً عنهـا فى كتـابه: «نساء من الشرق الأوسط» قال فيه: «إنها من عائلة رائدة فى التـصـوف. وكـانت الطريقـة الدمـرداشـيـة فى التـصـوف تمـتـاز بالتربية الذاتيـة، والخلوات الفردية، والتعبد الفردى. إنـهـا مجرد

واحدة من بين أكثر من ستين طريقة دينية صوفية فى مصر. كما استمرت الطريقة الدمرداشية كغيرها من الطرق الصوفية المصرية تحاول أن تجمع فى مسلكها وتصرفات أنصارها وخطوات المسئولين فيها شيئاً من مظاهر الاحتفالات الدينية الصاخبة التى يسيطر عليها التطرف فى الأداء، والصخب فى الصوت، والضجيج فى الابتهالات. مع الحرص على المساهمة فى خدمة المجتمع، ورعاية الفقراء وتعليم الأولاد. «لقد عاشت قوت القلوب الدمرداشية وهى تسبح عكس التيار بالنسبة لانتمائها الصوفى أو مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية».

كانت قوت القلوب هى الابنة الوحيدة للشيخ عبدالرحمن الدمرداش الذى كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية فى مصر. وكان على جانب كبير من الثراء. لذا نشأت فى جو ملىء بالرفاهية وبعيد عن الزهد والتقشف، فتزوجت من رجل مصرى يقل عنها وجاهة وثراء - كما يقول النشاشيبى - فاحتفظت بحق العصمة فى يدها. ورزقت منه بثلاثة أولاد وبنت واحدة. وعندما مات أبوها ترك لها ميراثاً ضخماً، ومستشفى خيرياً خاصاً يحمل اسمه لا يزال يقوم بدوره فى المجتمع حتى الآن، مما مكن قوت القلوب أن تتسلح بأرفع ما تتمناه الفتاة من علم وثقافة وإجادة للغات الأجنبية.

وقد تسلحت الكَاتبة بأمرين ساعداها على أن تحقق طموحها، الأول هو المال. أما الثانى فهو ثقافتها. وفى كتاب «الأدب الناطق بالفرنسية منذ عام ١٩٤٥» أن قوت القلوب أقامت صالوناً أدبياً للأدباء الذين يكتبون بالفرنسية.

دخلت الكاتبة عالم الأدب بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين، فى فترة أصبح فيها دخول المرأة المصرية إلى

الشارع والمجتمع قوياً. ونشرت روايتها الأولى عام ١٩٣٧ فى دار المعارف باللغة الفرنسية تحت عنوان «مصادفة الفكر». وفى نفس العام نشرت روايتها «حريم» فى دار جاليمار. وقد تنوع عطاء الكاتبة بين الرواية والقصة القصيرة واليوميات. ومن رواياتها: «زنوبة» (جاليمار ١٩٤٠)، و«الخزانة الهندسية» (جاليمار ١٩٥١) والتى كتب مقدمتها الروائى المعروف «جان كوكتو». ثم «ليلة القدر» عام ١٩٥٤ (جاليمار). وفى نفس دار النشر قدمت «رمزة» عام ١٩٥٨، و«حفناوى الرائع» عام ١٩٦١. وهو نفس العام الذى كفت فيه عن الكتابة. أما قصصها القصيرة فهناك «ثلاث حكايات عن الحب والموت» عام ١٩٥٤. وعقب مصرعها على يدى ابنها باثنى عشر عاماً. أى عام ١٩٨٠ نشرت يوميات الكاتبة المصرية تحت عنوان «ليالى رمضان» بالإضافة إلى مجموعة من القصص التى لم تنشر من قبل. ولعل المرة الوحيدة التى تعرف فيها القارئ المصرى إلى قوت القلوب هى فى عدد شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ من مجلة «الهلال» حين نشر ملخص لروايتها «زنوبة». أما الباحثون المصريون فقد تعرفوا إلى قوت القلوب فى حدود ضيقة من خلال الدراسة التى نشرتها المكتبة الفرنسية المصرية بالقاهرة عام ١٩٨٥ تحت عنوان «قوت القلوب أو رؤية مصر الأمس» أعدتها الدكتورة سونيا إبراهيم عقداوى. والتى حللت فيها أدب الكاتبة.

فى كتابها «ليلة القدر» تتكلم قوت القلوب عن نفسها قائلة: «لقد ولدت تحت أقدام مئذنة، والتى كانت أول شىء رأيته، فأحسست بها كأنها أصبع تشير إلى السماء. أما أول شىء سمعته فهو اسم الله يتردد خمس مرات يومياً بصوت المؤذن

فينشى روحى». وكما جاء فى مقدمة كتابها «ثلاث قصص عن الحب والموت» التى كتبتها أندريه موروا، أن قوت القلوب قد ربت أبناءها تربية دينية حسب الشريعة الإسلامية، كما تلقوا أيضاً أسس العلوم والفنون الغربية. وكان بيتها مزاراً لكل كتاب العالم الذين يأتون إلى القاهرة أمثال فرانسوا مورياك، وأناطول فرانس.

وترى الدكتورة سونيا إبراهيم فى دراستها أن قوت القلوب لم تكن كاتبة «واقعية»، ولكنها اختارت من الواقع عناصره الرئيسية، وكانت بطلات رواياتها من نساء المجتمع البرجوازى.

من هؤلاء النساء هناك «زنوبة»، و«رمزة» وغيرهما، وزنوبة امرأة تعيش فى بداية القرن العشرين تنتمى إلى أسرة فقدت عائلها، وهى فتاة جميلة، كان عليها أن تتزوج رجلاً على عتبة الشيخوخة، ولكنها فوجئت أن هناك نسوة فى المنزل يسعين إلى إفساد هذا الزواج، وعندما تم القران أصبح الرجل الذى ارتبطت به مربوطاً ربط الخيط بالمقص. وفى ليلة الزفاف لم يوجه العجوز إلى زوجته كلمة غزل واحدة. وقضى ليلته ممدداً على مقعد طويل. وعندما أقبل الصباح لم تجده فى حجرتها. فقد مات العجوز. وهكذا ظلت عذراء فى ليلة عرسها وهى الأرملة الصغيرة، وبعد عدة أشهر تتزوج من رجل يدعى عبدالمجيد. كان كل همه أن تنجب له ولداً. لكنها لم تحمل بالسرعة التى تحدث للنساء فى البيوت المجاورة. فراحت تدعى أنها حامل. ولم تكن كذلك. «فلم يتطرق الشك إلى ذهن أحد ممن كانوا يرونها ويراقبون تطور حالتها. إلى أن ذهبت إلى بيت أبيها لتضع مولودها فيه جرياً على العادة المتبعة.

فإذا بالمولدة تقدم الطفلة الوليدة لحماتها. فأسرعت زنوبة إلى أسرتها. ثم عادت مرة أخرى إلى منزلها. وعند الميلاد تشعر بمشاعر جديدة: «اقتربت الأم الشابة من طفلتها الصغيرة وحملتها بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها. وقدمت لها صدرها. وارتفعت أصوات النساء بالزغاريد».

لكن الفرحة لم تكتمل، فليس الإنجاب هو المهم فى هذا المجتمع، بل أيضاً إنجاب الذكور. فالويل كل الويل لمن ليس له ولد! والويل ألف مرة للمسكين الذى لم ينجب ذكراً. إن نعشه يحمله الأغراب، ولن يجد المعزون فى بيته من يوجهون إليه العزاء».

والحرية هى إحدى المسائل البالغة الأهمية فى روايات قوت القلوب خاصة حرية المرأة. فالمرأة الشرقية مسورة بقيود تمنعها من حريتها، وأم «رمزة» على سبيل المثال كانت فى سن تسمح لها بالمغامرة. ولكنها سرعان ما دخلت إلى حريم الأمير. ولأنها فتاة ذكية، فقد حصلت على حظوته، وعلى مكانة طيبة داخل الحريم. ولكن ابنتها راحت تتمتع بحريتها. وقد بدا ذلك واضحاً من خلال ترددها على المكتبة، واستيعاب المعرفة. وهى تعتبر نموذجاً مخالفاً لزنوبة. فهى فتاة ذات استقلال خاص، وطموح، حيث ترفض ألا يراها زوجها قبل الارتباط.

وفى روايتها «الخزانة الهندسية» نرى نموذج عائشة الريفية البسيطة التى كان من حسن حظها أن تربت مع ابنة رضوان بك فى القاهرة. ولذا فهى لا تتصرف كخادمة. ولكن كابنة لرضوان. وقد استطاعت أن تجذب انتباه المجتمع من حولها. وهى تهوى الموسيقى وتجيد العزف على العود، مما دفعها إلى

أن تصبح مطربة مشهورة، وتجىء أهمية نموذج عائشة ليس فقط من أنها تحررت من القيود الاجتماعية البالية، لكن فى أنها أصبحت مثالاً يحتذى به الكثير من الفتيات.

وقد رأت رمزة أن خلع الحجاب ليس أبداً تمرداً على الدين ولكنه حالة من الانفصال عن سطوة الرجل الذى ينظر إليها نظرة جنسية. أما رمزة بطلة الرواية التى تحمل نفس الاسم فهى فتاة فى الرابعة عشرة من العمر عليها ألا تكشف وجهها قط عندما تخرج من المنزل. خاصة عندما تدخل سلاملك أبيها. وهى تعيش فى مدينة الإسكندرية التى يعيش فيها أبناء جنسيات عديدة. وتتفاوت مسألة الحجاب بالنسبة للفتاة حسب الأمور، فعندما تنزل إلى الحديقة، عليها أن ترتدى حجاباً ثقيلاً حتى لا يراها أحد. أما إذا ذهبت إلى صديقاتها الفرنسيات فيجب أن ترتدى حجاباً أبيض خفيفاً، وهى لا تخفى أنه يسبب لها ضيقاً ويعرقل حركتها. وفى رواية «حفناوى الرائع» تذهب زكية إلى رأس البر مع زوجها الذى يفرض عليها أن تغطى كل جسدها لانه يشعر بالغيرة عليها. وقد وصفت قوت القلوب حالة العبودية التى تعيشها بعض النساء بعد الزواج فى قصصها ورواياتها وخاصة فى «رمزة». لكن هذه المرأة لا تلبث أن ترفض أن يقوم الرجل بتعريتها حين ينظر إليها. فهى ليست حيواناً. ولكنها كائن يفكر ويحس: وسلوك رمزة يثير قلق أمها التى تقول لها: «ستفعلين مثل الأخريات ياابنتى؟ سيقولون لأنك ذهبت إلى المدرسة.. ولأنكِ تعلمت. تريدين أن تحطمى تقاليدنا». لكن الفتاة لا تود أن تُعامل كسلعة.

فقد مضى عهد استعباد المرأة. وتقرر أن تقوم باختيار زوجها بنفسها. ولأن مسألة اختيار الزوج صعبة فى هذا

المجتمع فإنها تردد: «عندما تودين حلية فإنك تذهبين إلى الجواهرجى، وعندما تودين مسكناً، تسألين سمساراً، وإذا رغبت فى زوج فيجب أن تكونى قادرة وماهرة فى الاختيار».

وأغلب نساء قوت القلوب لا يقفن موقفاً سلبياً فى المجتمع. فـ«رمزة» تتعلم القراءة والكتابة أيضاً فى «الكتاب» ثم تتطور فى تحصيل المعرفة، وتصادق الفرنسيات، وتحب رجلاً يدعى ماهر وتبدو واضحة وهى تعبر له عن مشاعرها، ثم تتزوجه ضد رغبة أبيها. وتكون الصدمة أن زوجها يرفض أفكارها المتحررة.

هذا هو بعض من عالم قوت القلوب والذى كتب عنه أدباء مشاهير من طراز «أناطول فرانس»، و«أندريه موروا» الذى رأى أن عالمها أقرب إلى ما قدمته لنا الكاتبة النيوزلندية الشهيرة كاثرين مانسفيلد، فى طى حديثه عن المجموعة القصصية «ثلاث حكايات عن الحب والموت: نظيرة، زهيرة، ظريفة» هؤلاء النساء البائسات الثلاث قد قمن بتعريفى الكثير عن مصر أكثر مما أعرفه عن إنجلترا. عن نساء كاثرين مانسفيلد، أو مما تعلمته عن نساء فرنسا كما كتبت كوليت».

إذن هذه هى سيرة موجزة لقوت القلوب الدمرداشية، التى حاولت فى هذه الرواية أن تروى سيرتها من خلال الشعائر الدينية المرتبطة بالمناسبات الدينية المتعددة، فوصفت كيف يعيش أبناء الموسرين فى مصر، فى بداية القرن العشرين. وحكت كيف يروى الناس القصص الدينية بمفهومهم الشعبى البسيط، وتلك هى رؤيتها الخاصة.

كلمة.. المؤلفة

ولدت تحت مئذنة، والتى كانت أول شىء رأيته، فأحسست بها كأنها أصبع تشير إلى السماء. أما أول شىء سمعته فهو اسم الله يتردد خمس مرات يومياً بصوت المؤذن فينشى روحى. بعد ذلك حضرت لحظة وفاة أبى وقد اتجهت آخر نظرة له إلى السماء وكان اسم الله هو آخر اسم نطقه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أهدى هذا الكتاب إلى أبى الذى استطاع بحكمته أن ينمى بداخلى حب تقاليدنا دون أن يحرمنى من نيل قسط من التعليم الحديث.. إلى أبى الذى كان شيخاً طيلة اثنين وسبعين عاماً وكان أفضل مثال على الورع الحقيقى. بفضل ما تعلمته منه، استطعت أن أجوب العالم وأتطلع إلى أرقى الحضارات دون أن أفقد الإيمان الذى تعلمته فى طفولتى والذى أخذ يزداد.

كان كل شىء من حولى مغلفاً بالإيمان لدرجة أنه شَكَّلَ حياتى. جميع الذكريات التى أحملها بداخلى والتى لم يمحها أى شىء مثل تدهور الأخلاق المخزى، أو أسفارى فى البلاد البعيدة مختلطة بعقيدة الإسلام.

أردت الاحتفال بتلك الليلة المباركة ليس من وجهة نظر عالم دينى يبذل جهداً فى التفكير وإنما من وجهة نظر شخص مؤمن بسيط يتحدث بسليقته.. لم ألجأ إلى الأفكار النقية وإنما لجأت إلى استخدام صور الحفلات الدينية.. صور الرجال الورعين الذين تعرفت عليهم، وصور الشعب المصرى الذى يتمسك بالعادات الإسلامية وفى نفس الوقت ينفرد بشعائره.

كل شيء زائل فى الأمور الإنسانية. فأعمق الذكريات يمكنها أن تمحى أو تتلاشى.. هل يمكن لذكرياتى أن تمحى أيضاً وهى متعلقة بعقيدتى الدينية؟ لنذكّر الناس بما لا ينسى.

القاهرة فى ٧ فبراير ١٩٥٤

قوت القلوب

ليلة القدر
ليلة ٢٧ رمضان



بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾[1]

صدق الله العظيم

الليلة قبل الأخيرة من شهر رمضان ربما تكون هى ليلة القدر، وهى مباركة من الجميع: الروح والملاك الأمين جبريل الذى نزل فى هذه الليلة من السماء وسلم الرسول كتاباً أصبح هدى ونوراً للعالمين: إنه كتاب الله القرآن الكريم دستور الإسلام. ليلة القدر إذن هى ليلة مباركة.

يؤمن العديد من المؤمنين أن هذه الليلة يمكن أن تكون ليلة قدرهم؛ فيقضونها فى الصلاة والتأمل آملين أن يحدث ما يحقق آمانيهم. بالطبع أنا لا أتحدث عن سكان المدينة الحديثة. الذين يوجهون أنظارهم إلى الغرب ولا يحالفهم الحظ برؤية دليل من الله فى هذه السماء المليئة بالنجوم الساكنة هم لا يعرفون متى تكون ليلة القدر؟

ربما لو كانت لديهم الجدية لأدركوا ذلك. وقد يجذب انتباههم رائحة البخور غير التقليدية وطبق المهلبية أو الكسكسى على المنضدة. وربما النظر إلى هذه السيدة المغطاة بلباس أبيض والممسكة بمسبحتها فى يدها يعطى انطباعاً أن هذه الليلة تختلف عن باقى الليالى.. كذلك صوت الشيخ الذى يقرأ سوراً من القرآن يجعل الناس يصرخون فجأة:

«إنها ليلة القدر». إذاً مازال هناك ورع فى قلوبهم فهم يجلسون لاستماع الآيات التى يتلوها الشيخ الوقور والتفكُّر فيها.

وقولهم: «ليلة القدر: يعنى لقد مضى رمضان وانتهى الصيام». فى الأحياء الشعبية، يعرف الجميع ليلة القدر وينتظرونها بكل شغف، ولا ينام أحد فى هذه الليلة.. تظل البيوت مضاءة والمحال مفتوحة حتى الفجر. يعلو

---

(١) سورة القدر

صوت المذياع في كل مكان مُعلناً كلمات الله، ولا يمل أحد من الاستماع إليه.

هل يوجد شيء في العالم بمثل هذا العمق وهذا الجمال؟

هل يمكن أن نتعلم المزيد من أي شئ آخر؟

هل هناك شيء يعلو بالروح فوق أحزان الحياة؟

لا يوجد شيء أكثر تناغماً يمكنه أن يحمل إلى الآذان وإلى القلوب فرحة أكثر من التي تحملها تلك الآيات الكريمة خاصة لو كانت الإذاعة اختارت شيخاً ذا صوت ذهبي كي يتلوها وهو يتغنى بالمقاطع فيجذب المستمعين. ما كل هذه الحشود المنتشرة في الشوارع؟!

تمر الناس شامخة هنا وهناك.. على أرصفة المقاهي، لا نجد مكاناً شاغراً وانتشرت المقاعد والموائد على الأرصفة بل وامتدت إلى الشوارع.

جلس الناس يوجهون أنظارهم إلى السماء، وهم يلفون حول أصابعهم الرشيقة حبات المسابح المصنوعة من الكهرمان. أما الناس الأقل حظاً والذين لم يجدوا أماكن سوى بالداخل، فإنهم يخرجون بين لحظة وأخرى ليلقوا نظرة خاطفة على القبة المرصعة بالنجوم. الأمر يتعلق بموضوع أساسي قد يغير من قدر الإنسان. ظهرت فجأة في السماء نجمة لمدة دقيقة ثم اختفت لتُعْلِم الجميع أنها إشارة من الله إلى خلقه الذين انشغلوا عن طاعته. في هذه الليلة المميزة، وهي ليلة القدر، يختلف حجم وبريق النجم الذي يرسله الله في الفضاء. كل من يحالفه الحظ برؤيته ويكون ذهنه حاضراً ويتمنى أمنية يحققها له الله. كل شخص من الأشخاص الموجودين هنا يتأمل السماء تكون أمنيته نصب عينيه! مثل تمنى الخير لعائلته وزيادة الرزق في العمل والزواج الصالح والمحصول الوفير والنجاح في الامتحان وأن يُرزق بمولود وزيادة الدخل وسعة الرزق من أجل أداء فريضة الحج في مكة المكرمة والنجاح في العمل والزواج للفتيات اللاتي تقدم بهن العمر والفوز بيانصيب وشفاء طفل مريض وزيادة سعر القطن والنجاح في خطوة

ما وكسب قضية..

من الذى لا يرغب فى الدعاء؟ وتمنى الثروة هى أكثر دعوة مجردة من الخيال!. كثيراً ما تتردد تلك الرواية المضحكة لسيدة حالفها الحظ وحضرت ليلة القدر فاكتفت بطلب برطمان من الزبد السائح من أجل العيد القادم، ألا ترون أن هذه القصة مجرد خُرافة وليس لها أى أساس من الصحة. ويمكننا تقديم دلائل. فأى رجل من هؤلاء الرجال لديه أمثلة على بعض الدعوات التى تحققت لأنها تمت فى الوقت المناسب ولأن أصحابها حضروا - كما يُقال - ليلة القدر. لنقترب من هذه المجموعة التى تجلس فى صمت: العجوز ذو الذقن الرمادية اللون يُدعى عبداللطيف صانع القباقيب.. أما جاره على اليمين ذو العينين الواسعتين والذى يبدو شريراً وهو فى الواقع - أكثر الرجال خجلاً فهو فراج إبراهيم بائع اللبن، وهذا الصغير هو فوزى بائع السجائر. أما عن محله فهو عبارة عن علبة يحملها على ذراعه، وهذا الآخر الذى يُسبل جفونه ويضحك بصوت عال فهو مشهور باسم المعلم زلاطا، وهو يقوم ببعض الأعمال التى لا نعرف الكثير عنها وإنما يقضى حياته على المقهى ويعرف الجميع وعنده كل الأخبار. أما الذى يجلس بجانبه فيدعى محمود حسن صائغ الحارة الموجودة خلف منزلى ولا نرى عنده سوى بعض الجيران يحتسون القهوة وهم يتسامرون. أما هذا العملاق ذو العينين الجميلتين الضاحكتين الذى يبرم أطراف شاربه وهو ينظر إليك فيدعى عمر، وهو يصنع أجمل أوانى فخارية فى المدينة ولديه العديد من الزبائن من الرجال والسيدات..

كان يجب أن يكون ثرياً لكنه لا يستطيع مقاومة إطراء السيدات له على الألوان الصارخة التى يطلى بها الطواجن والمزهريات فيضطر للتنازل عن قرشين فى الشىء الذى كلفه أربعة قروش. ها قد تم التعارف. فلتتفضلوا بالجلوس دون أن تخشوا أى شىء إنهم أكثر الناس أمانة على مستوى العالم. صحيح أن الحظ لم يتبسم لهم. لكن ماذا تريدون؟ فلم يشهد أحد

منهم ليلة القدر.

بل إنهم يعرفون حكايات كل من حالفهم الحظ، ولو لم تكونوا على عجلة من أمركم فإنهم قد يروون لكم حكايات حتى الصباح.

قصة فرج اللبَّان:

عندما تمرون أمام المنزل الموجود فى نهاية الشارع، ستجدون لوحة مكتوباً عليها اسم (المعلم مختار الديب - مقاول) بالخط العريض. وستجدون نفس اللوحة بالقرب من باب الفتوح عند مدخل أحد الورش وتوجد اللوحة نفسها فى السيدة زينب وروض الفرج والحسينية. مقاول يجيد عمله ولن تجدوا مثيله فى القاهرة.

إنه يمتلك منزلاً فى المنيرة وسيارة وخدماً وأموالاً طائلة لا يعرف ماذا يفعل بها.. تعرفت على المعلم مختار الديب حينما كان مجرد رجل فقير. فكان يسكن أمامنا فى قايتباى وسط المقابر.

كان يعمل بناءاً مثل والدى. وفى ذلك الوقت، كان البناءون غالباً لا يجدون عملاً ولم تكن الأجور عالية. كان لمختار أربعة أطفال أكبرهم فى مثل سنى، وكان لا يشترى لهم جلاليب جديدة. كما كانوا لا يشبعون جوعهم أبداً. وكانت هذه السنة عصيبة على البنائين، وكان شهر رمضان بالنسبة للجميع شهر الصوم الحقيقى. وجاء العيد وشعر مختار بخيبة أمل لأنه لا يمتلك بعض الملاليم اللازمة لشراء كعك العيد أو حتى ما يشبع جوع أولاده. مختار رجل صالح، وبدلاً من أن يتسكع أمام المقاهى وفى الشوارع خلال أيام رمضان الطويلة التى لا يعمل فيها، كان يقضى ساعات طويلة فى مسجد قايتباى الموجود بالقرب من منزلنا، يصلى ويصلى دون أن يفقد الأمل. ووضع أمله الأخير فى ليلة القدر، يقضى المساء ثم جزء من الليل معنا فى الميدان أمام المسجد ينظر إلى السماء. لم يكن قد تناول أى شىء منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة.. يلف حبات مسبحته بكل سرعة وهو يردد: «الله..

الله.. الله» قبل الفجر بقليل، تركنا.

لم نعر الأمر اهتماماً وفجأة، ظهر مرة أخرى وهو يرتعد. كانت عيناه زائغتين، أخذ يردد وهو يتلعثم: «رأيت ليلة القدر.. رأيت ليلة القدر» وحكى لنا أنه صعد إلى سطح منزله ودقق النظر فى السماء واستقام تجاه القبلة وأخذ يُصلى دون توقف.

وفجأة مرت فى السماء كُرة من النار تاركة وراءها خيطاً من النور الخاطف. أخذ يدعو: «ياإلهى أعطنى ما يكفى قوت عائلتى» ونزل يلامس وجهه الأرض.. وعندما تمالك نفسه كانت السماء صافية أخذ مختار يرتعد من الحرارة ووصلناه لفراشه. أقسم لكم أنه بعد عدة ساعات، توقفت سيارة أمام منزلنا وكنت على عتبة الباب، فنزل شيخ وسألنى عن منزل مختار البناء. فأخبرته وجريت أزف الخبر لأبى. وعندما خرج الشيخ، دخلنا عند مختار ووجدناه جالساً على ركبتيه رافعاً يديه وهو ينظر إلى السماء فى ذهول يشكر الله بصوت عالٍ. كانت زوجته وأولاده طائرين من الفرحة. أحضروا لنا منديلاً به أساور وخواتم وأقراط ومجوهرات من ذهب وأخرى من فضة ونقود من جميع الفئات. الشيخ الذى رأيته هو عمدة إحدى قرى الشرقية. فقد توفيت عمة مختار التى كانت تسكن هناك منذ عدة أعوام، والمجوهرات الموجودة أمامنا فى الغرفة الفقيرة هى إرثها. فى هذه الليلة، عندما انطلق المدفع، كنا ملتفين حول المائدة نتناول طبق الفول وفى اليوم التالى أى فى العيد، أكلنا على غير العادة لحم الضأن ومكسرات وكعكا. أتكلم بصيغة الجمع لأن مختار كان كريماً ودعانا نشاركه ثروته. لكن زوجته كانت إمرأة ذات رأى صائب ولم تود صرف الإرث كله على الملذات. وتلبية لنصيحتها، اشترى مختار قطعة أرض صغيرة خلف منزله. وقرر بناء منزل، وبهذا يمكنه تأجير بعض الغرف والحصول على دخل ثابت. راح يزيل بقايا المبنى القديم الذى كان على الأرض وأخذ يحفر الأساس. وفى يوم ارتطمت فأسه بشىء صلب ورنان: كانت عبارة عن قدح من النحاس ملىء بقطع من

الذهب. قطع ذهبية قديمة جداً ترجع تقريباً للعصر المملوكى. وكانت ألف قطعة.. يالها من ثروة ! أخذ مختار يرقص فرحاً ويصيح وهو يضحك: «إنها ليلة القدر.. إنها ليلة القدر». وشكر ربه من أعماق قلبه.

هل تصدقون أنه قام بعد ذلك ببناء العديد من المنازل؟! وعين مئات العمال وازدادت ثروته. وأصبح أبى رئيساً لورشته وبفضله أصبح عندى بائع اللبن الخاص بى. كما سبق وقلت لكم، إن المعلم مختار الديب رجل صالح وكريم. أما الطيب عمر فقد نفد صبره، فقد استمع لقصة ثروة مختار الديب حتى نهايتها وهذا للمرة المائة. والآن جاء دوره ليروى قصته.

قال: إنها قصة عبدالفتاح بيومى ابن عمى كما رواها لى بنفسه، وقد أقسم أن كل ما سيقوله حدث بالفعل.

كان عبدالفتاح بيومى من عائلة فقيرة جداً وكان والده يبيع زيتاً فى شوارع روض الفرج.. وعند وفاته، حمل عبدالفتاح الذى لم يكن قد تجاوز عمره الثالثة عشرة الجرة السوداء الثقيلة على رأسه، وأخذ يدور على جميع أبواب الحى، وهو يصب بعض اللترات من الزيت هنا وهناك حيث يناديه البعض ويصده البعض الآخر. وفى المساء، يعود إلى البدروم البائس الذى يسكن فيه مع أمه وأخته الصغيرة مسروراً لأنه كسب بعض القروش يطعمهم بها.

مضى عشرون عاماً، وهو يجوب الشوارع نفسها طوال اليوم، وأخذ الناس يعرفونه من ندائه حيث كان يردد: «الزيت البلدى»، تبدو ملابسه ملطخة بالشحم ووجهه النحيف يلمع، ووزن الجرة الكبيرة يخف كلما اقترب الليل، دون أن يصبح جيبه ثقيلاً.

توفيت أمه وغادرت أخته المنزل بعد أن تزوجت. أنجبت سبعة أطفال، لم يبق منهم سوى اثنين على قيد الحياة. وكانا لا يجدان الطعام ولا يلقيان الرعاية الكافية، كما كانا يسعلان طوال الوقت بسبب رطوبة المكان الذى يعيشان فيه حيث لم يجدا مكاناً أفضل من هذا. لم يتمرد عبدالفتاح على

قدره: أليست هذه إرادة الله؟

وفى صلاته التى كان يحرص عليها دائماً، كان يطلب من الله أن يساعده فى تلبية احتياجات عائلته. وكان أيضاً قد علَّق كل آماله على ليلة القدر، لكنه لم يرها حتى اليوم الذى حدثت فيه المعجزة وتحقق الحلم. فى هذه الليلة، وعند عودته من جولته اتجه إلى النيل ليحضر بعض الماء فى القِدْر الذى يضع فيه الزيت، توضأ وصلى فى خشوع. وعند حلول الليل، قرر أن يبقى فى المكان فترة من الزمن، وقال لنفسه: لم العجلة والعودة إلى المنزل؟

فكمية الخبز القليلة الموجودة في البيت لن تكفى الزوجة والأولاد. والستة قروش التى يمتلكها، عليه الاحتفاظ بها حتى يشترى حصته من الزيت فى اليوم التالى.

قضاء ليلة دون إفطار ليست مشكلة فى نهاية رمضان فقد اعتادت المعدة على الصيام. وتناول قطعة من الخبز فى السحور قبل طلوع الفجر قد تكفى للانتظار حتى مساء اليوم التالى، الذى سيكون أفضل إن شاء الله. أمسك مسبحته وأخذ يردد اسم الله دون ملل. لم يتذكر كم استغرق هذا، كل ما يمكن أن يقوله هو أنه رأى فجأة وبوضوح فى السماء باباً من الذهب المتلألىء، انفتح على مصراعيه وظهرت منه مجموعة من النجوم المبهرة. أخذ يصرخ: «ربى.. اجعلنى ثرياً».

ثم أغشى عليه. وعندما أفاق كانت الشمس قد أشرقت فاسترد وعيه، وقال: «شاهدت ليلة القدر». أخذ ينظر ولم يكن ثوبه الرث قد تغير إلى جلباب من الحرير. فتش جيبه فلم يجد سوى بعض الملاليم. تنهد متألماً. فقدره ثابت لم يتغير: ظل بائع الزيت كما كان قبل ليلة القدر. حمل الجرة واتجه إلى منزله. وجد طفليه الصغيرين يبكيان على عتبة الباب. وفى الداخل وجد زوجته ممددة على الأرض. اعتقد أنها ماتت. صرخ قائلاً: «رباه إنها إرادتك لكن.. هل كانت ليلة القدر من أجل إخبارى بهذا الخبر السيىء؟

بدونه كنت بائساً بما يكفى. أخذ يضرب رأسه متألماً. ثم انخفض إلى

مستوى وجه زوجته وجدها تتنفس أخذ القدح المقلوب بجانبها ونهض يأخذ بعض الماء من صنبور الزير، لكنه كان فارغاً. ولاحظ أن غطاء الزير في غير مكانه. مال عليه ونظر فيه.. حملق جيداً.. أخذ يصرخ: فقد وجد الزير مملوءاً بقطع من الذهب أمسك ببعضها، أخذ يتفحصها: إنه ذهب بلاشك. حدثت المعجزة. ولم تكذب ليلة القدر. اهتم بإفاقة زوجته. أمسك ببصلة وقسمها نصفين وأخذ يمررها أمام أنفها ويلامس بها شفتيها حتى أفاقت. أخذت تصرخ وهى تنهض واثبة فى اتجاه الزير: «الذهب.. الذهب» فعلت كما فعل زوجها. ملأت كفيها بقطع الذهب وهى تضحك عالياً. أما الأولاد فقد اغترفوا من الزير وأخذوا يقذفون بالذهب فى الهواء وهم يصرخون.

روت الست أمينة ما حدث لزوجها فقالت له: إنها انتظرته طويلاً ولم تخلد للنوم إلا فى ساعة متأخرة من الليل.. وعندما دار المسحراتى ليوقظ المسلمين حتى يتسحروا قبل أذان الفجر، سمعت طرقاً على الباب وذهبت وهى نائمة، لتفتح الباب معتقدة أن زوجها عاد إلى المنزل. لكنه كان السقاء.. دخل بكل هدوء متجهاً إلى الزير.. أفرغ قربته وخرج كما دخل دون أن ينطق بكلمة واحدة. اليوم، لم تفهم الست أمينة أى شىء.. فقد كان كل شىء طبيعياً. علماً بأن الوقت لم يكن مناسباً لمثل هذه الزيارة. كما أنها كانت فقيرة جداً لدرجة أنها لا تملك خمسة قروش لإعطائها شهرياً للسقاء، لذا كانت تذهب بنفسها لتملأ الصفيحة من السبيل. ولم يدهش هذا المشهد الناس. أخذت القدح وأرادت الحصول على بعض المياه من الصنبور.. لم تجد أى شىء. رفعت غطاء الزير لترى ما بداخله نظرت.. صدمها ما رأته ووقعت مغشياً عليها. عمل ابن عمى بيومى فى تجارة الزيت. وأصبح يمتلك مخزناً كبيراً يأتى ليتزود منه جميع بائعى الزيت وبقالين القاهرة. هو الآن لا يعرف القدر الحقيقى لثروته. وعندما رُزق بالذهب، صدق عينيه لأنه دعا بهذه الدعوة ليلة القدر لكن الأمر الذى يحيره حتى الآن هو عدم عثوره على السقاء. فقد قام بالبحث عنه وأحضر جميع السقاءين فى القاهرة أمام

زوجته، ولم تتعرف أبداً على الذى أحضر لها الذهب فى ليلة القدر.. فهل كان حقاً سقاء؟

بينما انتهى عمر من سرد قصته، كان المعلم زلاطا يُعد الحكاية التى سيرويها لنا. كانت عيناه نصف مغلقتين، وشفتاه تهتزان وأصابعه تتحرك حركات توضح الجُمل التى يرددها فى نفسه. أخذ يسعل ليصبح صوته واضحاً:

ما سأذكره لكم هو خير دليل على فاعلية ليلة القدر.. إنها قصة حماى المعلم أحمد البنا من قويسنا. أترون محطة قطار قويسنا؟

منذ ثلاث سنوات كانت جميع الأراضى والمنازل المحيطة بها ملكاً لحماى، وكان أغنى رجل فى المدينة بحق. يعرف جميع أهل قويسنا أنه قبل أن تفتح له ليلة القدر، كان من أفقر سكان كفر المصلى.

عندما تزوجت ابنته الكبرى رقية، اشتريت بنفسى حصيرة وملاعق ووعائين للطهى. لم يعطها والدها أى شىء، ولا حتى الزير. أما عن شِوَار رقية فكان عبارة عن ثوب واحد فى حالة سيئة.

كانت تتباهى لأن زواجها كان من أجل جمال عينيها. كان أحمد يسكن فى آخر منزل عند الخروج من قرية كفر المصلى. يملك غيطا مساحته نصف فدان أرض مالحة. وفى وقت الحصاد كان غيطه يشبه رأس الرجل الأصلع.. خصلة شعر هنا وأخرى هناك مما يجعل الجميع يسخرون منه. كان هذا الحقل لا يغنيه عن العمل بفأسه حتى يكسب رزقه. يعمل باليومية هنا أو هناك، وكان يُسَر عندما يحين الوقت لتنظيف قنوات الرى، حيث كان يكسب منها جيداً.

كان يمتلك عنزتين، فالماعز تجد ما يسد حاجتها على الطريق وعلى حواف القنوات أو فى فضلات البلدة. كان دائم التسول من الجيران. من هنا قليل من الدقيق نظير أجره ومن هنا بعض الحبوب حتى يبذرها فى حقله، ومن هناك بقرتان حتى يحرث أرضه..

فهو من الناس الذين يستطيعون تكديس الديون أكثر من تكديس الأموال. في هذا العام. قرب انتهاء شهر رمضان عمل أحمد في عزبة الباشا صباحاً، وكان يسقى أرضه ليلاً. وكانت الساقية في نهاية الحقل. لازلت أراها بعد هذه الساقية المهتزة المفككة التي تصدر أصواتاً متقطعة!.. إنها ساقية قديمة ملطخة بالطين.. لم تكن ملكاً له وإنما كان يشاركه فيها جاره سليم وبقرته هي التي كانت تدورها. لم يتناول أثناء إفطار ليلة القدر، سوى كوبا من اللبن وبعض العسل الأسود الذي أعطته له جارته الكريمة..

وعندما أبدى أولاده ضجرهم، وعدهم بأن يحضر لهم لحماً وملابس جديدة للعيد.. فمما لاشك فيه أن الباشا سيعطيه بعض اللحم كما يعطي للعمال. لكن من أين سيأتي بالملابس؟ أحمد يعلم أن الله لن يتركه في حيرة من أمره في ليلة القدر. بعد الانتهاء منّ تناول الوجبة البسيطة، أخذ بقرة سليم وتوجه نحو الساقية. البقرة تعرف عملها.. بينما الساقية تدور وهي تغني بطريقتها: وان.. وان (وهو صوت يسمعه أهل قويسنا). راح أحمد يتأمل النجوم وهو جالس على الأرض المنحدرة ويقول في نفسه: «لو حالفني الحظ وشهدت ليلة القدر. سأطلب ما أتمناه»!.

في وقت متأخر من الليل. كان ينظر إلى هلال شهر رمضان الذي كان رفيعاً مثل الخيط وقد ظهر أمامه مكان القمر، هذا النجم المعجزة على شكل عجلة الساقية، التي تدور وهي مشعة حولها سيل من الشرارات.

أدرك أحمد أن الحظ جاء يدق بابه ولا يجب أن يتركه، صاح: «لتنتثر الذهب في حقلي ياإلهي». وظل مكانه مبهوراً من الظاهرة غير الطبيعية التي شهدها، وكان واثقاً أن أمنيته ستتحقق.

ومع ذلك، يتساءل كيف سيكون التصرف الإلهي في هذا الأمر؟. بينما كان يفكر، كانت الساقية تدور وتصب في الجدول المياه التي تلمع بهدوء تحت النجوم. كانت هذه إشارة لأحمد. بينما كانت الساقية الخشبية تغمر الأرض بالمياه، غمرت مشيئة الله الغيط بالكنز، وكان لابد من العثور عليه.

نهض أحمد يبحث فى حقله لكنه لم يعثر على الذهب المتلألىء. ظن أن قطع الذهب قد توغلت فى الأرض مثلها مثل مياه الرى. لم يستطع الصبر حتى الصباح، وبدأ البحث. أمسك فأسه وأخذ يحفر بالقرب من الساقية فى نفس المكان الذى شاهد فيه ليلة القدر. لم يلحظ وجود أى شىء مهم، فى المساء. ما كاد يضرب بفأسه حوالى عشر مرات حتى شعر بوجود جسم صلب. جذبه من الحفرة وتحسسه، وأخذ ينظر إليه حتى تبين له أنها جمجمة جمل. خاب أمله وكاد أن يلقى بها ويكمل الحفر، إلا أنه لاحظ أن الجمجمة ثقيلة. وبضربة فأس قسمها نصفين، فاكتشف أنها مليئة بقطع من الذهب.

وقد رأيت تلك القطع الذهبية، وأقسم لى أحمد أنه وجدهم على هذا الحال. ولم يتحدث مع أى شخص آخر ولا حتى مع زوجته أو ابنته - فالنساء لا يستطعن الاحتفاظ بسر - غادر أحمد كفر المصلى ليسكن فى قويسنا، واشترى قطعة أرض وبعدها قطعة أخرى..

وبنى عمارة ثم عمارتين ثم عشراً! وكنا نعيش جميعاً مثل البشوات! أنتم تنظرون إلىّ وتعتقدون أن الثراء لا يظهر على المعلم زلاطا.. فكلما أصبح مع المرء نقود، كلما طمع فى المزيد. ربطت علاقة صداقة بين حماى وبين خواجة من قويسنا، اصطحبه معه إلى الإسكندرية، وجعل يعمل فى شراء وبيع القطن فى البورصة. وعندما أقول: إنه كان يشترى القطن.. لا أقصد المعنى الحرفى للكلمة لأنه لم يشهد أبداً جوالاً فى حياته. كان يذهب إلى البورصة مع الخواجة وكنت غالباً ما أذهب معهما وأشاهد بعض الرجال الذين يصيحون: «ألف قنطار أشمونى! ألفى قنطار سكلا ريداس» والخواجة يقول لأحمد: اشترى، وأحمد يصيح سأشترى. وأحياناً يقلق ويردد: «ليس معى نقود كافية لشراء المزيد من القناطير». والآخر يقول له: لا بأس. يمكنك الدفع، عندما تبيع القطن». كنا ننام فى فندق يشبه القصر، ونأكل الديك الرومى كل يوم. وفى المساء، نذهب إلى الكازينو: حيث كانت هناك مغنيات وراقصات كل واحدة منهن أجمل من الأخرى، تحضرن للجلوس معنا. كنا

نبذر قطع الذهب كما لو أنها ملاليم. في وقت ما، كان المعلم أحمد البنا يتمتع بقدر من الشهرة في الإسكندرية. ثمن القطن يكفي لكل شيء.. لم أكن مستبشراً وكنت أقول لنفسي: «هذا كثير! الأمر لن يستمر طويلاً». وحدث ما كان متوقعاً: في يوم طلب من أحمد دفع آلاف الجنيهات، وكان لابد من بيع عمارات قويسنا، وتم رفع قضية ضده، لم يصدر فيها الحكم بعدها. مات أحمد، لكن متى سيتم تسوية أمور الميراث؟ هل سأرث مليماً؟ هذا هو السؤال الذي كنت أردده. معلهش يامعلم زلاطا، لتفعل مثل الجميع وتنظر إلى السماء. ربما تشاهد ليلة القدر هذه الليلة سيهبط عليك إرث حماك، كما لو أن الدنيا تمطر ذهباً. أما محمود الصائغ فقصته جاهزة. ستكون هي أيضاً قصة كنز.. لتستمعوا إليَّ.

كما تلاحظون، لا تسير أي إمرأة في الشوارع. مع أنهن لم ينمن في غرفهن، ولم يتجملن في انتظار عودة أزواجهن.

لو استطعتم أن تُحلِّقوا فوق المدينة، ستلاحظون أن الأسطح مليئة بكتل بيضاء، جالسة القُرفصاء، ووجوه متجهة إلى السماء. تنتظر جميع نساء القاهرة ليلة القدر هذه الليلة، ومن أجل تعزيز أملهن يقصصن أروع القصص عن الآمال التي تحققت.

أيها القارئ الذي لا أراه لو كنت رجلاً، يجب عليَّ أن أعطيك خاتماً سحرياً لأجعلك غير مرئي ونخترق سوياً هذا المجال المحرم لأسطح الحريم.. لكن هل أستطيع أن أفعل ما لا أقدر عليه؟ لو كنت سيدة لاصطحبتك ياأختي! لنذهب سوياً ولن نجد باباً مغلقاً في طريقنا. هاهي الحسينية وجامع البيومي. في مواجهتهما نجد منزل الست عائشة وأنا واثقة أننا سنجد فيه العديد من الاجتماعات..

شيخ جامع البيومي ذو الصوت الذي يشبه صوت البلبل وهو يجذب هؤلاء السيدات، وسطوح الست عائشة الذي لا يحده أي شيء من أي جانب، وهو المكان المرجو لتأمل السماء المرصَّعة بالنجوم، ومراقبة ليلة القدر.

لكن احترسوا، فالسلالم مظلمة وضيقة جداً.

وقد سبق وقلت لكم: إنه لا يوجد أحد فى صالون الحريم، إلا صينية من الفضة تعكس الضوء الخافت الذى يتسرب عبر المشربية. لنكمل الصعود. أتسمعونهن؟ فجميع النساء موجودات هنا تحت النجوم، وصل عددهن حوالى (٢٠) وقد حملن معهن وسادات، وسواء كن جالسات أو ممددات على الأرض، فإنهن يتحدثن بصوت خفيض. لا يجب أن تندهشوا من ملابسهن البيضاء: فلابد وأن يتمتع كل فرد بالنقاء من أجل انتظار ليلة القدر. أما الست عائشة، التى حضرت للقائنا، فكانت ترتدى ملابسها البيضاء، التى كانت ترتديها فى الحج، العام الماضى فى مكة. ووضعت بعض الكحل فى عينيها وحنت كفيها وقدميها. أهلاً وسهلاً، تم الترحيب بنا، تأثرنا لذلك جداً. هل تريدون بعض الطعام؟

لا، هذا غير معقول.. نحن لا نشعر بالجوع.. لكن أمام هذا الإصرار القوى.. قد لا نستطيع المقاومة.. هاهى أمامنا صينية مليئة بوجبات الإفطار. كلها أشياء لذيذة، بالإضافة إلى الحلوى التى أعدتها الست عائشة وبناتها، كما أحضرت كل زائرة ما أعدته من حلوى. إن كنتم تحبون اللوز المجروش، فتذوقوا تلك البسبوسة التى أعدتها الست تفيدة، ولا يستطيع أحد أن ينافسها. أما لو كنتم تحبون العسل، فلتأكلوا من هذه البقلاوة. وهذه قطايف محشوة بالبندق اللذيذ. هل تفضلون قضم الفستق والبندق واللوز الجاف والملبس؟ لتكونوا على راحتكم.. تصاعد من موقد الجمر، عطر البخور. انظروا إلى تلك المسبحة المصنوعة من العنبر، التى تلفها جارتنا نبيهة بين أصابعها. إنها من مكة، قد أهداها لى أبى منذ خمس سنين، عند عودته من الحج. آمل أن يمنحنى الله فرصة مشاهدة ليلة القدر، عندى ابن كنت أرسله إلى المدرسة حتى خط شاربه. إنه عالم مثل مشايخ الأزهر. يمتلك العديد من الكتب الفرنسية والإنجليزية، التى لا يفهمها والده. كنا نريد أن نلحقه بوزارة الأوقاف فهو يستحق هذه الوظيفة أكثر من أى شخص آخر، وعلى الرغم من

المساعى التى يتخذها والده منذ عامين، لم يتم تعيينه بعد. عندما أدعو الله أن يتم قبول عبدالعزيز فى وزارة الأوقاف، لا أشعر أن هذا الطلب غير عادل! وحتى أكون طاهرة وأنا أدعوا الله، فعلت اليوم كل ما نصحنى به جارى الشيخ عبدالمجيد. ولم أكل طيلة اليوم بصلاً أو فجلاً أو فولاً. نصحنى الشيخ بتجنب الفول: لأن طبق الفول المدمس، هو الذى يثقل على الروح والجسد!

هذا الصباح، وأنا بصحبة أم محمود وخديجة وتفيدة والست عائشة، ذهبنا لنصلى فى مسجد سيدنا الحسين ومسجد السيدة زينب وقرأنا الفاتحة لأحفاد النبى صلى الله عليه وسلم. وبعد الظهر، ذهبنا لزيارة الإمام الشافعى والإمام الليث. قمنا بالجولة كلها سيراً على الأقدام، ما عدا مسجد السيدة زينب، الذى يقع بعيداً. تعبت أقدامنا.. لم ندخر تعبنا حتى نرضى الله تعالى. جلست دون أن أنطق بكلمة واحدة منذ عودتى وحتى موعد الإفطار.

ظللت أكثر من ساعة دون كلام! كان زوجى ينادينى وابنى يسألنى: لكنى لم أرد أبداً! ظللت على نفس الحال الذى غادرنا فيه الأضرحة. وقبل الإفطار، شربت كوباً كبيراً من الماء كنت قد بللت فيه بعض البلح الجاف، الذى أحضره لى الشيخ عبدالمجيد.. من مكة..

هل يمكننا أن نفعل ما هو أفضل من ذلك؟ يارب يارحيم..

ألا أستحق أن أشاهد ليلة القدر؟

الله! الله! الله!...

حبات المسبحة العنبر تلف بسرعة بين أصابع الست نبيهة، بينما كانت تذكر الله بكل إخلاص. نهضت الست تفيدة، وهى أخت زوج الست عائشة، وتسكن نفس المنزل. ذهبت لتلقى على فحم الموقد قليلاً من الملح الذى يدخن ويطقطق: هذا هو أحسن ما عثرنا عليه حتى الآن لإبعاد الروح الشريرة، التى أحياناً ما تطوف حول النساء ليلاً، وهى توسوس لهن بأفكار سيئة.

فمع أي فكرة شريرة، ينهار الأمل بمشاهدة ليلة القدر.

– ربنا يحميك ياست تفيدة ويحقق لك ما تتمنيه!

– ربنا يسمع منك ياقوت ويحقق لك آمالك، أنا أتمنى.. أن تكون لى بنت!

– بنت! لكن جميع السيدات يطلبن أولاداً.

– أولاد؟! عندي منهم خمسة. عندما ولد طفلى الأول، زوجى ذبح جملاً، وذهبت لأشكر الله فى مسجد سيدنا الحسين وكذلك الشافعى. وبعد ولادة الطفل الثانى، زرت الإمام الشافعى وذبحنا خروفاً عند ولادة الطفل الثانى. واحتفلنا بولادة الطفل الثالث بذبح ديك رومى. وبعد ذلك دعوت الله أن يرزقنى بنتاً، وعندما ولدت طفلى الخامس، بكيت بشدة. سيتقدم بى السن، ألن تكون لى بنت، حتى تساعدنى على تقديم الحلويات وتعطينى الماء عندما أمرض.. ابنة تكفننى بعد موتى، ثم تحضر لتضع الزهور على قبرى؟

– لتتمنوا ذلك فى ليلة القدر!

– كم من مرة تمنيت أن أرى فيها دليل الله. وأتساءل إذا كان كل شئ مقدراً من البداية: فهل يمكن تغيير هذا القدر؟..

تعالت الاحتجاجات من كل جانب..

– ياله من أمر ياتفيدة! هل تعتقدين أننا جميعاً غبيات حتى ننتظر ليلة القدر هذه الليلة ونحن غير واثقات أن هذه المعجزة قد تحدث؟

– شهدها عدد غير قليل من الناس، فلماذا لا نشهدها نحن أيضاً؟

اسمعى يا تفيدة ، سأحكى لك قصة روتها لى خالتى زينب ، وهى طبعاً حقيقية . أنا أعرف السيدة التى حدث لها هذا الموقف، اسمها عليا.. كنت غالباً ما ألتقى بها عند خالتى لأنها تسكن فوقها، فى العباسية، منذ زواجها.

عليا .. سيدة غير جميلة، لكنها رقيقة وجادة وتدير منزلها بشكل جيد. تعشق زوجها وتعتقد أنه يبادلها نفس المشاعر، لكن مع الرجال لا يمكننا أن نعرف أبداً ماذا يوسوس لهم الشيطان؟

فقد أعجب هذا الزوج بأرملة شابة، التقى بها عند أخته، بدلت حاله لدرجة أنه تزوجها بعد ثلاثة أشهر من زواجه عليا.

لتضعوا أنفسكم مكان تلك السيدة المسكينة. أنا أعلم تماما أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمح للرجال بالزواج من أربع. وذلك عندما تتقدم زوجة فى العمر توافق أن يتزوج زوجها من سيدة أخرى، هذه هى طبيعة الرجال التى خلقهم الله عليها ! ولا يجب أن نغضب منهم لهذا السبب، لكن بالنسبة لـ عليا التي لم تتجاوز العشرين عاماً، كان من الصعب عليها الرضوخ لمثل هذا الموقف . كانت تنوح ليل نهار .. أما زوجها الذى لا يفهم منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى تأييد زواج الرجل بأكثر من امرأة بشرط أن يعدل بينهن . أما هذا فقد اتخذ لزوجته الجديدة مسكنا فى القبة وكان لا يغادرها أبداً.

روت عليا مأساتها لخالتى التى نصحتها بالصبر حتى نهاية شهر رمضان، وأن تنتظر ليلة القدر. خالتى هى أفضل من تعرف ما يمكن أن تفعله لطرد العين الشريرة ، إما بعمل زار أو انتظار ليلة القدر ، وشرحت لـ عليا بكل دقة ما يمكنها أن تفعله .

فى المساء شاهدت عليا فى السماء مجموعة من النجوم ، طلبت من الله تعالى أن يمن عليها بعودة زوجها ، وخلدت للنوم . استيقظت مذعورة على أصوات طرق متكرر على بابها . إنه زوجها ..

عاد إليها يرتدى جلباباً وحافى القدمين . كما لو أنه قام لتوه من السرير. جسده كله يرتعد . يبدو مضطرباً . دون أن توجه له أى سؤال، أخبرها أنه طلق زوجته الثانية، وأقسم لها أنه سيكرس حياته من هذه اللحظة لإسعادها.

وفى الصباح توجه إلى المأذون ، ليتم إجراءات الطلاق. وعند عودته أحضر لعليا قفص برتقال ، وسواراً من الذهب، أخذ يقبلها ويضمها إلى صدره، ويقول لها : «كم أنت جميلة يا عليا؟».

كأنى لم أر أبداً جمالك هذا وأصبح منذ ذلك اليوم من أحن وأوفى الأزواج . كانت عليا حكيمة واستوعبت المعجزة السعيدة التى أرسلتها لها السماء. ولم توجه له أى سؤال. بعد عامين، روى لها زوجها من نفسه ما حدث له تلك الليلة.

أنه كان نائماً بجوار زوجته الثانية ، استيقظ على ضوضاء غريبة ، سمع صوت طرق على كل مكان فى الغرفة.. الأبواب والجدران والسقف. وفى نفس الوقت. شعر بتنميل قوى يسرى فى جسده.

وقلبه يدق بقوة، اعتقد أنه سيموت ، راحت أذناه تطنان ، سمع صوتا يقول له : «ارحل من هنا!» أضاء المصباح كانت عيناه مفتوحتين لكنه لم يشاهد فى البداية سوى ألسنة نار بجميع الألوان. وعندما رفع رأسه . رأى قروداً مكشرة عن أنيابها . متعلقة بالسقف وأدرك أن الجن يملأون الغرفة . أراد أن يوقظ زوجته ، لكنه تراجع مذعوراً حينما وجد مكانها فى الفراش قرداً ضخماً ذا شعر طويل وشكل قبيح . خرج مسرعاً وقدماه ترتعدان، لم يسترد أنفاسه إلا فى الشارع، عندما تنفس نسيم الصباح العليل، شعر أنه عاد للحياة مرة أخرى ، زوج عليا رجل تقى .. يعرف أن كل شىء يتم بإرادة الله، وأدرك أن عليه أن يطلق زوجته الثانية وعاد إلى التى ظلمها فى المعاملة.

هل يمكننا القول بعد ذلك إن ليلة القدر لا تغير من الأقدار؟

– من الذى يجرؤ على تأييد مثل هذا الكلام المنافى للعقل؟

هذا ما صاحت به الست فاطمة التى اقتربت وسمعت نهاية قصة الست تفيدة. لقد أكدت آلاف الأمثلة على تحقيق الأمانى فى ليلة القدر. ويمكننى أن أستشهد بشهادة أختى عزيزة . أنا واثقة من حقيقة ما قالته لى أختى كما لو كنت قد شاهدته بنفسى.

شهدت أختى ليلة القدر، وكانت معجزة المعجزات ؟ انفتحت السماء كما لو كنا نفتح ستاراً وفى النهاية ظهرت مشكاة تضم على الأقل ، ألف شمعة،

كانت أكبر من جامع سيدى الرفاعى .. كان الشمع مختلف الألوان.. كانت الشمعات تتلألأ مثل الياقوت والزبرجد والماس، أو كأى شىء يمكن أن تتخيلوه وهو يتلألأ . تعرفون أن الدكتور أحمد بيه مراد زوج عزيزة يكسب الكثير من المال من عيادته. لكن أخاه سليم الذى أخذه معه شريكاً، هو أكثر مكراً منه، وكان يخونه، أحمد يعمل وسليم هو الذى يغتنى. كانت عزيزة ترى هذا بوضوح، لكن زوجها يثق فى أخيه ثقة عمياء ولا يقبل أن يحذره أحد من ألاعيبه. وقد وجدت عزيزة بذكائها حلا. لم يكن لديها سوى ابنة وسليم عنده ولد. وكانا متقاربين فى السن تقريباً . ولو تزوجا لن تخرج الثروة من العائلة. وبفضل ليلة القدر حدث كل شىء كما تمنته أختى .

لم يكن توفيق ابن سليم يفكر أبداً فى الزواج من ابنة عمه. كان يكفى أن تدعو عزيزة فى ليلة القدر وهى ترى أبواب السماء تنفتح : «يارب تتزوج ابنتى من ابن عمها توفيق».

حتى يتحقق الأمر ولم يمر أسبوع حتى كتب الكتاب وتم الزواج ثم ولد لهم ولد وصار كل شىء على ما يرام .

– قالت أم محمود إن عزيزة نجحت فى هذا الأمر لأن مليكه لم يكن لها ابن عم سوى توفيق.

– حتى لا تختلط الأمور . فقد سمعت قصة عن سيدة من طنطا كانت تتمنى أن يتزوج ابنها من وريثة غنية تدعى فاطمة محمد.

وعندما دعت أحضر لها ابنها فتاة زنجية معدمة، التقى بها فى الشارع ، تدعى فاطمة محمد . صار هذا الزواج فضيحة حقيقية. وماتت السيدة المسكينة من حزنها.

– قالت الست خديجة : إن الله يعلم كل شىء ومطلع على القلوب ففى ليلة القدر يتوجه إليه العديد من الناس بالدعاء وربما يتقبل دعواتهم جميعاً . حكوا لى أن هناك حادثاً من نفس النوع وقع لزنوبه أم حسن، من درب المغاربة وهى التى تزوجت الشيخ عبد المجيد من المطرية .. كانت تعتقد أنها

عاقر وكانت ترى زوجها يتألم وتزداد حالته سوءاً بسبب عدم الإنجاب، ويبدو أنها لجأت إلى الله فى ليلة القدر.

رأت نجماً لكنها اضطربت لدرجة أنها فقدت وعيها .

المعجزة لم تستمر طويلا ! ولا يجب ترك أنفسنا للمفاجأة .

حملت زنوبة بعد ذلك. وسعدت جداً بحملها. لكنها رزقت ببنت . وكان لزوجها بنات كثيرات!

أضاعت زنوبة فرصتها ، ومن المعروف أن الفرصة التى تضيع لا يمكن أن تعوض .. لأن الإنسان لا يشهد ليلة القدر مرتين فى حياته .. الشيخ عبد المجيد كان قادراً أن يجرب حظه مرة أخرى مع زوجة أخرى جديدة تستطيع أن تنجب له ولداً . ذلك رغم كبر سنه . وقد التقيت أم حسن اليوم، وكانت قلقة للغاية.

قالت الست نبيهة : لابد وأن تكون على سطوحها فى هذه اللحظة لترقب ليلة القدر.

- قالت الست حسيبة : لا يجب أبداً تمنى شىء غير أخلاقى، مثل أن ندعو الله أن يفكك العائلات.

عندما كنا نسكن سوهاج ، وكان زوجى يعمل فى المحكمة الشرعية كان لنا جيران يتشاجرون ليل نهار. كانت العائلة مكونة من أرملة تدعى أم فرج وابنتها رقية، وكانت كبيرة فى السن، يعيش معها أيضاً الابن فرج المتزوج من سميرة.. وهى سيدة شابة . بالطبع هناك سوء تفاهم بين الثلاث سيدات، رقية كانت شرسة مع زوجة أخيها الشابة. لابد أن نفهم أن تلك الفتاة لم يطلبها أحد للزواج، فكانت تغار من زوجة أخيها، كانت بعض السيدات تأتى إلىّ لتبوح لى بأسرارها ، وأحيانا كانت الأم تشكو وتقول: كم أنت سعيدة ياست حسيبة لأنه ليست لديك زوجة ابن، ففتيات اليوم شابات لا تحترمن أبداً التى أنجبت وأرضعت وربت أزواجهن . عندما أعطى أمراً لزوجة ابنى لا تنفذه إلا وهى ساخطة وفى الصباح تنسى أن تلقى علىّ تحية الصباح،

ورغم كل هذا ، فهى فى حالة عدم توافق دائما معى، عندما أقوم بشواء لحم خروف تتمنى لو كان لحم عجل ، وعندما أعد فولاً تتمنى لو كانت بامية ! من التى يجب أن تكون لها الكلمة فى البيت ؟ لقد تزوجت ابنى لابد أن تكون تحت قدمى.

تأتى رقية وتزيد على كلام والدتها :

– عيلة لا تعرف كيف ترفأ قميصها! كسلانة تظل جالسة فى حجرتها بينما نرهق أنا وأمى فى الأعمال المنزلية وفى المطبخ!

إنها امرأة متصنعة ، تقضى ساعات كاملة فى الوقوف أمام المرآة، وتضع مكياجاً مثل بنات الليل، همها الوحيد أن تنال إعجاب الرجال؟ تشد شعرها حتى يبدو طويلا.. لا أحد يرى أنه قصير أجعد مثل شعر جدتها الزنجية.

وعندما تأتى سميرة لزيارتى كانت لها وجهة نظر أخرى . تبكى وتنوح :

– لا أستطيع الحياة مع هاتين السيدتين ، ياست حسيبة ! إنهما تعاملانى كما لو كنت خادمة عندهما بل أسوأ من ذلك لأنهما تخشيان أن تتركهما الخادمة وترحل بينما أنا مربوطة بهما ! وحتى أنال رضاهما، علىّ أن أقضى اليوم كله وأنا مرتدية جلابية متسخة وأن أقوم بالأعمال المنزلية الأكثر قذارة .. بمجرد أن أضع أقل زينة تمطرنى رقية بوابل من الشتائم ، وهى تقضى وقتها فى مراقبة رغباتى حتى تعارضنى، لو أردت عمل فنجان شاى، تأخذ البراد ، لو حاولت إشعال الفرن، تقفز لتطفئه وتمنعنى من استخدامه ، وتُخبئ السكر والقهوة إنها تكرهنى .. لو جاءتها الفرصة ستفقأ عينى! إنها غيورة ! هل تفهميننى؟ لم يطلبها أبداً أى رجل للزواج! وقد اغتاظت عندما تزوجنى أخوها .. وعندما تكون بمفردها معه، تروى له قصصاً كثيرة عنى : أشياء فظيعة أخجل من تكرارها أمامك! ومن حسن حظى أن زوجى لا يصدقها.. لكنهُ رجل ضعيف، فهو لا يريد أن يترك أمه أو

أن يطرد أخته . وعندما جاءت ليلة القدر، أدت سميرة عبادتها بهمة وإخلاص ، فعلت كل ما بوسعها حتى تكون فى حالة صدق، ورأت ليلة القدر!.

دعت : «يارب يصبح لى منزلى الخاص وفرن وأدوات مطبخ.. يارب أعيش بعيداً عن أخت زوجى وحماتى!».

للأسف لم تتحقق أمنيتها كما كانت تريد !لقد تركت حماتها وأخت زوجها.. هذا لأن زوجها طلقها ، ولم يصبح لها منزل أو فرن أو أدوات مطبخ، وعادت إلى منزل أبيها لتعيش مع زوجته التى لا تتفق معها أبداً.

– أتفهمون الموقف ، لقد تمنت أمنية غير عادلة عندما دعت أن يترك زوجها أمه ، فعاقبها الله.

– جاءت الصغيرة فلة وجلست بجانبى وقالت لى : ياست قوت أنا أدعو الله أن يحبنى الرجل الذى أحبه ، فهل هذه دعوة ظالمة ؟ كم هى مسكينة هذه الصغيرة! صوتها الحزين يثير الشفقة . عرفتها منذ صغرها . إنها ابنة أخت الست عائشة لم تنل حظها من الحياة حتى الآن. تزوجت دون حب وهى صغيرة السن.. بعد عدة أشهر من الزواج ، توفى زوجها وعادت إلى منزل أبيها الذى لم يكن حنونا معها، وها هو الحب يسيطر عليها وتعانى لوعته!

أمسكتها من رأسها وجذبت وجهها الصغير إلىّ، كان غارقا فى الدموع.

أبعدته عنى وسألتها : ماذا أصابك يا فلة؟ لماذا كل هذا الحزن؟

– أنا لم أتكلم مع أى شخص فى هذا الموضوع، يا ست. أنا أحبه!

أحبه! وسأموت لو شعرت أنه لايريدنى .

– من هو يا صغيرتى فلة؟

– اسمه منصور . بائع من دمشق. التقيت به عدة مرات هذا الشتاء عند والدى. إنه جميل يا ست ! لم أشاهد رجلا فى مثل هذا الجمال. أحببته على

الفور. كنت أحرص أن أكون موجودة فى الوقت الذى يأتى فيه. كان هو أيضا ينظر إلىّ، يوما ما جلست بمفردى معه عدة دقائق.. سألنى إذا كنت أقبل الذهاب معه إلى دمشق .

لم تتح لى الفرصة للإجابة، حيث وصل بعض الناس. وبالطبع كنت أريد الذهاب معه ! فيمكننى أن أترك كل شىء من أجل الذهاب معه إلى آخر الدنيا. اعتقدت أنه سيكلم أبى . لكنه سافر . وانتهى كل شىء . ولم أره ثانية منذ شهرين. عرفت أنه سافر إلى السودان.

لكن لماذا لم يكتب إلىّ؟ هل نسينى؟ هل تخلى عن فكرة الزواج منى؟

أنا أقضى أيامى ولياليى فى التفكير فيه، وهذا يعذبنى. لأننى أتخيل وجهه وأكرر الكلمات التى قالها لى .. ولازلت أسمع صوته فى أذنى ينتاب القلق والدى لأننى لم أعد آكل. يعتقد أننى مريضة .

لكن علاجى الوحيد .. هو كلمة أو خطاب منه .

حَنَوْتُ على الرأس الصغير الذى يهزه النحيب .

– ادعى الله يا فلة فهو الرحيم .

أطلق المدفع طلقة ثم أطلق طلقة ثانية ثم طلقة ثالثة، دوت الطلقات فى الليل . كما انتشر فى آخر الشارع صوت طبلة مسحراتى الحسينية الذى يتوقف أمام كل منزل ونحن نسمع الصوت المرتعش للعجوز، يرد عليه صوت حفيده .

كان الصوت الضعيف يقول :

«اصحى يا ست البيت! اصحى يا أم عبدالرحيم! اصحوا يا مؤمنين »

يتبعه الصوت الطفولى يقول :

«كلوا واشربوا! هيا اسرعوا! سيؤذن للفجر خلال ساعة».

وبعد ثلاث دقات على الطبلة يصرخ العجوز بكل قواه : «لاتنسوا هدية المسحراتى» ! . تشعل الست تفيدة الموقد وتضع الكنكة على الفحم من أجل عمل الشاى، ظهرت الست عائشة التى اختفت مع بناتها وخادمتها. كن

يحملن صوانى عليها أطباق طعام السحور أو وجبة آخر الليل. لاتحرص أية ربة منزل على اتباع التقاليد مثل الست عائشة.

وقد تعمدت أن تكون وجبة الليلة خالية من البصل والثوم والفجل والفلفل وأعدت أطباقا متنوعة حتى تجد كل ضيفة ما يناسبها .

التف الجميع حول الصوانى .

– قالت الست حسيبة : «أنا لا أتناول في السحور سوى جبن بدون ملح حتى لا أشعر بالعطش أثناء النهار. كما أننى أكون خفيفة».

– قالت أم محمود : «هذا لايكفينى، فقد أسقط من الجوع، لذلك أتناول طبقين من الفول المدمس بالزيت والبيض المسلوق.

أخذت كل واحدة تختار طبقها المفضل، قالت الأولى : إنها تفضل شربة الدجاج . والثانية : فطيرة الذرة باللبن. اختارت واحدة أرنبا بالأرز، وقضمت الأخرى البطاطس المقلية. كما كانت تضم الصوانى لبن رايب وحلاوة طحينية وزيتوناً وزبداً وعسلاً وجاتوه وقمر الدين، وفى الجانب الآخر، كانت هناك فواكه ومكسرات. قالت الست خديجة : « أنا مضطرة أن آكل جيدا حتى أستطيع القيام بعملى غداً . فالعيد بعد يومين ولابد من البدء فى التحضير .. علىّ أن أضع الرنجة فى الماء حتى يخف ملحها، وأعد اللحم المكمور وأعجن الكعك وأغلى الأرز، كما يجب علىّ أن أخيط ثوبين لابنتىّ، لأنهما لن يتركانى في حالى طالما لم أنته .

– قالت نبيهة: «نفسى مفتوحة وأنا معتادة على تناول سحور وفير لكن في ليلة القدر أحرص على تناول خبز دون خميرة ولبن رايب وبعض الفاكهة المذكورة فى القرآن الكريم مثل البلح والتين والعنب ولا أشرب سوى ماء الورد. هذا ما نصحنى به الشيخ عبدالمجيد إذا أردت لدعواتى أن تتحقق .

– قالت الست عائشة :

من المؤكد أن تناول الثوم أو التدخين .. لا يكون مناسباً، لكن لا بأس من

تناول قطعة حلاوة أو فنجان من القهوة أو الشاى. بدأت مناقشة .

ها هو المدفع يضرب من جديد . يبقى أكثر من ربع ساعة على الفجر . ظهر صوت المسحراتي مرة أخرى في الليل : « لتنتهوا بسرعة من تناول طعامكم، يا أم عبدالرحيم ويضيف قائلاً : «لاتنسوا هدية المسحراتى!» .

استيقظت الست فاطمة التى كان يغلبها النعاس واثبة . ملأت الست تفيدة فناجين القهوة التى تم تناولها بسرعة. أحضرت الخادمات أحواض المياه النظيفة، وأخذ الجميع يتوضأن من جديد ..

كما ذكر القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1]

صدق الله العظيم

اختارت كل واحدة منهن مكانا وفرشت فيه سجادة الصلاة.

وصلت الست خديجة خمس مجموعات، كل مجموعة عشرين ركعة :

ستسجد هذه الليلة مائة سجدة، لأنها خمس مجموعات فى عشرين. ستذكر اسم الله مائة مرة وستقرأ مائة مرة أربع آيات من القرآن، وهم طبعا من قصار السور التى يحفظها الجميع عن ظهر قلب، مثل سورة الفجر والنصر والناس. وتحذو جميع النساء الحاضرات اللاتى تعرفن القاعدة حذوها، فقد احتفظن لهذه الدقائق الأخيرة من الليل والأكثر مناسبة لظهور ليلة القدر، بآخر الصلوات التى ستكمل المجموعة المقررة. وفقا لما تعلمن ..

أطفأت الأنوار. لم يبق سوى الضوء الأحمر الصاعد من المؤكد فى أحد الأركان، أصبح اسم الله مدويا فى جميع أنحاء المدينة، بينما تركع وتسجد أجساد ملفوفة بالملابس البيضاء .

---

١ - «سورة: المائدة الآية ٦»

تعالت أصوات الآيات الكريمة ليلا فى الهواء الطلق .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾[1]

كان صدى صوت الست خديجة يظهر بعد صوت الست عائشة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾[2] .

وقرأت الست حسيبة بخشوع السورة الأخرى الطاردة للشر .. وهى سورة الفلق .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾[3] .

أما الست نبيهة فأخذت تقرأ سورة النصر بكل تركيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾[4] .

قالت فلة بصوت خفيض وهى جالسة بجوارى .. يا ست قوت، لقد رأيت ليلة القدر! وأشارت بيدها تجاه الشرق إلى نجم لامع .

إنه فينوس نجم الصباح . لكنى لم أهدئ فلة التى رفعت يديها إلى السماء وأخذت تدعو بكل خشوع .

---

١ - «سورة: الإخلاص»
٢ - سورة الناس
٣ - سورة : الفلق
٤ - سورة النصر

يا إلهى لأتزوج من منصور كامل محمد، بائع الحرير فى دمشق .
أنت قادر على كل ما تريد يا إلهى . وقدرتك عظيمة.
يا من جعل الرياح تهب ثم تهدئها.
يامن جعل الأعاصير تتوالى وهيج الأمواج.
ثم أعاد الهدوء إلى البحر.
يامن جعل الشمس تشرق ثم تغرب وبفضلها.
يتتابع الليل والنهار.
يا من فرق سماوات الأرض عن المياه.
يا من أجرى اثنتى عشرة عينا داخل الصخور.
وأجرى المياه بين رمال الصحراء .
يا من فتح مياه البحر أمام موسى .
يا من أنزل خروفا بدلا من الابن الذى كان سيذبحه إبراهيم.
يا من وضع عيسى فى رحم مريم العذراء.
يامن أعطى الرسول الأمى معجزة القرآن .
يا إلهى .. أنا لا أطلب معجزة كبيرة.
أنا أحب منصور، لتجعله يا إلهى يحبنى عندما يعود!

إن كنت أحبه فهذه إرادتك يا إلهى . وأنا لم أختر قدرى وإنما أنت الذى كتب عليّ حبه هو وليس شخص آخر . يا إلهى فى هذه الليلة المباركة التي تغير فيها مصير العالم حينما سلم الملاك جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم وصاياك المقدسة. اجعل حبيبى يبادلني نفس الحب !

ليرسل لى رسالة تخفف من آلامى، وسأشكرك حتي آخر يوم فى عمري.

إني أعانى وأتألم بشدة .. أريد أن أعرف إذا كان يحبنى أو لا . اجعله يصرح لى بحبه ليأتي ويصطحبنى معه أينما يريد .

يا إلهى .. لو كان قد نسينى أو كان مقدراً لى أن أعيش باقى حياتى بمفردى، لا تمسح حبه من قلبى ولاتخفف آلامى، لا تزل حبه من قلبى إلا فى

اليوم الذى ستمسح فيه اسمى من قائمة الأحياء. لاحت نجمة الصباح ببطء فى السماء، لكن من الذى يعرف ؟ عبر الدموع شاهدتها فلة .

وهى تنقسم إلى آلاف الشرارات ، وملأ الأمل قلبها . ابيضت السماء من جهة الشرق انطلق صوت المؤذن من أعلى المئذنة المجاورة ليذكر المؤمنين بصلاة الفجر . لا أحد يستطيع أن يرفع الأذان سوى .. محمد .. الكفيف .. مؤذن جامع البيومى :

الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حى على الصلاة

حى الصلاة

حى على الفلاح

حى على الفلاح

الصلاة خير من النوم

الصلاة خير من النوم (١)

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

نوت كل سيدة صلاة الفجر وهى واقفة على سجادتها موجهة نظرها نحو القبلة، وارتفعت الأيدى المفتوحة إلى السماء، أخذت النساء تكبر : «الله أكبر» لاشىء الآن سوى الصلاة. تعالت همسات الأصوات بالتكبير . وقفت النساء، اليد اليمنى تعلو اليد اليسرى . الجميع يقرأن الفاتحة .

---

١ – **الصلاة خير من النوم لاتقال إلا فى أذان الفجر فقط.**

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾[1] .

ثم تقرأن بعض آيات من قصار السور اللاتى يحفظنها . تنحنى الظهور مع التكبير ركوعاً، ثم ينهضن مستقيمات بقولهن : «سمع الله لمن حمده» تثنى الركب وتلامس الجباه الأرض سجودا .. ينهضن بنصفهن الأعلى جلوسا ثم ينحنين مرة أخرى سجودا . اجتهدن فى الصلاة قبل ظهور نور الصبح. حتى تكون الصلاة صحيحة، فلابد من الانتهاء من الركعتين قبل شروق الشمس . فى نهاية الصلاة جلست الست تفيدة تقرأ التشهد مفترشة الأرض :

التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد.

ثم أدارت رأسها إلى اليمين مرددة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم إلى اليسار مرددة **السلام عليكم ورحمة الله**، قلدها فى ذلك باقى النساء . انطفأت النجوم .. الواحدة تلو الأخرى. ظل فينوس وحده مستديرا كالقمر الصغير. الصوانى عليها بقايا السحور . تظهر المنازل المجاورة ومسجد البيومى. تأخذ شكلها فى الصباح . بعد أن كانت مطموسة فى

١ - سورة الفاتحة .

الليل . تظهر الشمس فوق الجبل الأحمر .. من أحد الأركان شبة المظلمة، تخرج تنهيدة طويلة . تبدو سعيدة. إنها الست فاطمة التي نسيناها ، أخذت تفرك عينيها وتتثاءب وهي جالسة على سجادتها : شاهدت ليلة القدر! هل حقا شاهدت ليلة القدر يا ست فاطمة ؟! كيف كانت ؟

تنظر الست فاطمة حولها ، ولم تستيقظ بعد . صاحت : «الله أنا لست عند أبي في شارع الجمهورية» ؟تعجب الجميع .

قالت الست فاطمة : «غريبة ! كان يبدو لي أنني واقفة في شباك غرفة المنزل بالغورية . وفي المواجهة محل صلاح أمين الصائغ ، كان مقفولا بستار حديدي كبير . وفجأة رفع الستار ، أعتقد أن الجنة قد ظهرت لي . ضوء سماوي ! عقود من اللؤلؤ ، أكاليل من الماس المتلألىء مثل الشمس التي تدور ! ياله من مشهد مبهر !

– هل تمنيت شيئاً يا ست فاطمة ؟

ترددت الست فاطمة وظهر عليها القلق .

– صاحت أم محمود : الحمقاء ! لم تتمنى أمنية !

قالت الست فاطمة : «تمنيت أمنية غير التي أعددت لها . كنت أنوي أن أطلب أن يدبر لي زوجي ثمن الحج إلى مكة ، وبدلا من ذلك . طلبت أن يهديني عقداً من اللؤلؤ ! أخشى الآن غضب الله وعدم إعطائي أي شيء !

– قالت الست عائشة : اطلبي من زوجك ، لو عرف أنك شهدت ليلة القدر سيدرك أن هذا أمر من الله ، ربما يوافق .

– ليس لديّ أمل في هذا الشأن ، فهو بخيل جداً ، سيجيبني أنني كنت أحلم ، أو أنني أخترع قصة حتى أسحب منه نقوداً ! لابد من أن يغير الله ما في قلبه ! حتى يدفع نقود الحج .

– سأكتفي بالعقد اللؤلؤ .

ضحكنا . والآن أشرقت الشمس وكملت استدارتها في الأفق .

لكن لا أحد اكترس للأمر . فقضاء الليل على السطح لم يكن من أجل

الشـروق . فـيـمكننا أن نرى الشـروق كل يوم . لكن ليلة القـدر لا يمـكن أن نراها إلا مرة واحدة فى العمر .

وداعاً للأمانى ، حتى العام القادم !

– قالت الست تفيدة : «عندما ننزل السلم ، لم يكن بيننا من شـهـد ليلة القدر سوى فاطمة ! شـعرت بيد فلة تشـد على يدى. لم تقل أى شىء لكن وجهها كان مـشـرقاً بالأمل . ليقـرب الله العالم بالقـلوب بينها وبين من تحب .

الحــج



– قال الشيخ سليم : إن قدرنا بيدالله . فهو الذى وهبنا الحياة وهو الذى يأخذها . ليكون اسمه مباركا .

– – تنهدت نمازار هانم وقالت : «توفى زوجى وأبى وأمى ، خلال عامين فقدت كل شىء . أعيش وحيدة ومضطربة ، ليست لدىَّ الرغبة فى الحياة» .

– قالت يلديز: «يا صديقتى ، لابد أن تشربى من ماء زمزم فهى قد تخفف من آلامك . ساد الصمت ، ارتفع الصوت المرتجف للشيخ العجوز وهو يتلو الآيات الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) [1] .

صدق الله العظيم

لم تقل نمازار أى شىء ، لكن الكلمات الإلهية تسللت إلى روحها .

– وفى الليلة التالية ، شاهدت فى الحلم عجوزاً ذا لحية بيضاء .

فتحت له بابا أخضر وجعلته يدخل أحد المساجد . استيقظت وهى ترتعد، ولم تنم مرة أخرى طوال الليل . وفى الصباح استدعت الشيخ سليم، وروت له حلمها . لم يتردد الشيخ لحظة واحدة ، وقال لها : هذه دعوة للحج. ولابد من تلبيتها . كان الشيخ سليم صديقاً قديماً لوالد نمازار ، وكانت تثق فيه ثقة تامة ، ولم تشك فى كلامه واستعدت لاتباع تعاليمه .

---

١ – «سورة إبراهيم الاية : ٣٧ .

إنه إلزام مقدس ، على كل حاج أن يتصدق ، ويحرص الحاج على إحضار بعض الملابس من الحجاز لإهدائها لعدد من المؤمين أقل منه مالا إذن لابد على نمازار هانم صاحبة الثروة الكبيرة أن تهتم بتوزيع بعض الهبات على سكان الصحراء . بذلك تخضع لإرادة الله الذى سمع دعاء سيدنا إبراهيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)(١)

صدق الله العظيم

تحولت غرفة فى المنزل الكبير إلى محل تتكدس فيه مختلف البضائع ونمازار هانم تأتى كل يوم تقريبا مع صديقتها يلديز. تحسب ما جاء وتضع جانبا ما لا يروق لها وتدون ما نقص .

علقت على الحائط قائمة سلمها لها الشيخ سليم . وجاء اليوم الذى لاحظت فيه بكل رضا أن جميع من فى القائمة كانو حولها . فى اليمين قطع الأقمشة ، مائة قطعة من القطن للفقراء . وعشر قطع من الحرير لنبلاء مكة والمدينة ، وخمسون عباية للشيوخ ، ومائة زوج من الجوارب للنساء ، و٣٠ صندلاً وعلب كاملة من الخيط وإبر كبيرة ودبابيس . وصناديق عطور : ماء تواليت وماء الورد وماء ورد البرتقال وفى اليسار كانت توجد المنتجات الغذائية : عشرة أجولة من الدقيق وخمسون قالب سكر ، وصندوق علب سردين ، وزجاجات زيت ، وعلب كبيرة من الحلاوة ، وعلب جبنه وبرطمانات من الزبدة والكثير من الأشياء الأخرى . وعلى ثلاثة أرفف ، تراصت بعض المنتجات الدوائية ، من أكياس الأسبرين إلى زجاجات التطعيم . تكبدت

---

١ – «سورة إبراهيم الاية: ٣٧ .

يلديز هانم عناء السفر لتغليف هذه البضائع . وعندما يأتى الوقت المناسب تستطيع العثور على الشيء المطلوب دون فك أى شيء . كانت يلديز سعيدة . تقول لنفسها وهى تتنهد : إنها قد تموت قبل أن ترى مكة ، لأن السفر مكلف جداً بالنسبة لها .. إلا أن صديقتها نمازار اقترحت عليها أن تذهب بصحبتها وعلى نفقتها . ياله من حظ . كانت يلديز فقيرة لدرجة أنها لم تستطع إحضار الكثير من الهدايا ، فتقوم على الأقل بالمساعدة فى تقسيم هدايا صديقتها . ولم تسافر خاوية الأيدى ، أخذت بعض النقود لتشترى القماش ، الذى صنعت منه ثلاث دست من المناديل . إن الله يطلب من كل فرد أن يتصدق على قدر استطاعته اقترب موعد الرحيل . فى غرفة نمازار هانم .. التى تم فيها البدء فى تجهيز الأمتعة ، على الفراش كانت هناك قطعة قماش من الكتان الأبيض : هى كفنها الذى ستأخذه معها حتى تبلله فى ماء زمزم . هكذا يفعل جميع الحجاج . عندما يلقون حتفهم ، يتم لفهم فى كفن احتفظ بفضيلة البلد الحرام. تخصص الأربعة أيام التى تسبق الرحيل لاستقبال الضيوف . كل يوم بعد الظهر ترتدى نمازار جلابية بيضاء طويلة ذات أكمام طويلة وتضع طرحة بيضاء على رأسها ، تظهر على وجهها مشاعر الورع ، نشاهد حولها نساء العائلة والجيران وصديقاتها . تحتسى النسوة الشاى ؛ يقضمن الملبس واللوز والبندق . يدور نقاش حول الحج . فدائما ما توجد علي الأقل سيدة قد زارت مكة .. تحكى عن رحلتها ، تسرد الكثير من القصص والتفاصيل وتملى التوصيات . من بين الزوار .. يوجد الزوج والأب والأخ والابن والجار ؛ حاج يروى بعض النكات أو يصف بعض الأشياء . وغالباً لا تتطابق الروايات كثيراً ، لكن الجو الروحانى للاجتماع يحول دون النزاع فى المناقشات أو الأكاذيب . ليست جميع هذه الزيارات خالصة . فالعديد من النساء أحضرن أكفانهن إلى نمازار حتى تبللها بماء زمزم .. يعطينها أكفانهن أمام الجميع ، ويشكرنها كثيرا ،

هناك عدد آخر من النساء يطلبن منها خدمات أكثر حساسية .. يأخذنها على انفراد :

– إحداهن : «يا صديقتى .. ستتزوج ابنتى .. فهل يمكنك أن تأخذى عصابة رأسها وتبلليها فى ماء زمزم ؟

– وأخرى تشكو قائلة : يا ست ، ينتاب ابن بنتى بعض التشنجات ولا ينمو أرجوك اقرئى له الفاتحة عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبللى قميصه الصغير بماء زمزم.

– وأخرى تقول : يا عزيزتى نمازار ، أنت تعرفين مصيبتى ! هذه رسالة كتبتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .. أطلب من الله أن يهبنى ابنا أتشفع فيها بالرسول : من فضلك ، ضعيها قرب قبره يأتى موعد صلاة المغرب ، تؤدى الصلاة مع نمازار هانم . جميع النساء الحاضرات فى المنزل سواء كن من الأهل أو الأصدقاء أو الخادمات اصطففن جميعهن حولها وأخذن يقرأن الفاتحة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾[1] .

علا صوت الشيخ بترتيل آيات من القرآن الكريم . فنصتن له :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

---

١ – «سورة الفاتحة .

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)[1].

همست المرأة العجوز قائلة : ليحمينا الله من رؤية مثل هذه الأشياء .

قالت نمازار : الحمد لله أننا مؤمنون .. ووقانا الله شر هذا العذاب .

أضافت يلديز قائلة : خاصة بعد أداء فريضة الحج .

تم استئناف الحديث واستئناف قصص الحج ، والأعمال الورعة .

حان وقت العشاء . أحضرت الخادمات الصوانى المليئة بالطعام وأخذت المناقشات منحى أقل تقشفاً. عندما تهدأ الأصوات ، نسمع صوت الشيخ يملأ المكان بآيات القرآن :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾[2].

صدق الله العظيم

صاحت يلديز قائلة : هذا هو الدليل على أن رحمة الله شملت العناية بالسيدات ، لأن الله تعالى لم يعد الرجال بالأساور المصنوعة من الذهب أو من اللؤلؤ . ضحك الجميع وانتهت الليلة فى سعادة .

مساء الخميس ، فى محطة كوبرى الليمون ، التى سيتحرك منها قطار الحجيج المتجة إلى السويس ، كانت هناك عشرون سيدة ملفوفات فى ملاآتهن وهن على عجلة من أمورهن . فى ممر عربة القطار كانت نمازار هانم ويلديز ، والخادمتان اللتان تصطحباهما تجلسان وسط الأمتعة والسلال . كان الجميع يتكلم وكانت أصواتهن تعلو الصراخ الصادر من الزحام ، وفوق ضجة الأبواق راحت النساء ترددن التوصيات قبل الوداع

---

١ - سورة الحج. الآية : ١، ٢ .

٢ - سورة الحج. الآية : ٢٣ .

الأخير .

دق الجرس : غادرت الخادمتان العربة بسرعة .. اهتز القطار .. رددت الأفواه بصوت عال : «الله الله الله» الخادمتان تنظران إلى وجه نمازار المتشنج ووجه يلديز النضر اللتين فى طريقهما إلى الرحلة المقدسة .

بينما عادت كل من جولشام هانم ، وأم محمد ، وأم منصور ، والست تفيدة ، والست عائشة ، وحسيبة ، وذكية ، إلى المنزل الكبير وهن تشعرن بقبضة فى قلوبهن .. لأن المنزل خاو وهادىء . بعد مرور أربعين يوما . التقت كل من جولشام ، وتفيدة ، والست عائشة ، حسيبة ، وذكية ، وأم منصور ، وأم محمد مرة أخرى على رصيف المحطة الصغيرة نفسها فى انتظار قطار السويس الذى يعود بالحجيج . كانت الناس محتشدة أكثر من يوم الرحيل والضجة تصم الآذان ، عندما توقف القطار كانت الصغيرة حسيبة هى أول من رأت نمازار هانم ويلديز . كانتا مثل باقى الحجاج مرتديات أبيض فى أبيض .. إنهما الحاجتان ، قَبلّتْ كل من عائشة وجولشام وتفيدة يديهما وهن يطلبن البركة . ترددت آلاف الأسئلة على شفاههن ، لكنهن منعن أنفسهن من طرحها ، فالقادمات تشعرن بالتعب وملهوفات على العودة إلى منازلهن . فى المساء ، ومع حلول الظلام ، امتلأ المنزل من جديد بالأقارب والأصدقاء والجيران وتكررت الزيارات كل ليلة ولمدة أسبوع. وتناوب اثنان من الشيوخ تلاوة القرآن الكريم .. ومن أجل استقبال الضيوف، أقيمت وليمتان، الأولى فى السلاملك للرجال ، والثانية فى الصالون الكبير للسيدات.

لازالت نمازار ويلديز ترتديان ملابس الإحرام، وهى عبارة عن الثوب الأبيض الطويل الذى كانتا ترتديانه فوق جبل عرفات .. وسترتديانه طيلة السبعة أيام. تستقبل نمازار النساء الأكثر تواضعا بكل ترحاب . الأكثر خجلا فقط هن اللاتى يتبعنها إلى حجرتها حيث توجد الأمتعة . تأخذ كل من

ائتمنتها على كفن أو على قميص أو عصابة رأس، حاجتها بعد أن باركتها بماء زمزم، وسرعان ما توزع الهدايا على القريبات. أحضرت هدايا متنوعة بدءا من العبايات الحرير، أو الأصواف، والأرواب اللامية، والأساور والأقراط الذهبية وحتى الأحذية والإيشاربات القطنية الرخيصة الثمن . حتى الأشياء البسيطة لها فرجتها لأنها من مكة. لكن ما يجذب الانتباه ويثير الاطماع، هى القنينة الكبيرة التى لم يتم فتحها بعد، وهى مملوءة بماء زمزم. فى النهاية استسلمت نمازار للتوسلات وقامت بفتحها . أعطت لكل سيدة بعض القطرات، وأخذت بعضهن تمسح بها وجهها . البعض الآخر طلبن منها أن يملأن زجاجة من ماء زمزم، فقد يكون فى المنزل زوج أو أب أو طفل مريض .. تحاول تلك السيدات أن تطردن الحظ السيئ ويعتمدن فى ذلك على بركة ماء زمزم.

شربت جميع النساء من الماء فهى تشفى آلام الجسم وتهدئ معاناة الروح، وتطهر من الخطايا. أخذت جميع النساء تشربها باقتناع وهن يخفين تعبيرات الوجوه، لأن ماء زمزم لونه أبيض طعمه يميل إلى المرارة . أخذت يلديز تراقبهن بطرف عينيها وهى تقول :

– أليس ماء زمزم لذيذاً .

رد عليها الجميع :

– إنها عذبة .. إنها مثل اللبن .

– إنها مثل العسل فى الفم .

– إنها رائعة حقا فمنذ لحظات كنت أعانى من ألم فى رأسى والآن أشعر بتحسن .

– ما الغريب فى ذلك ؟! إنها مياه المعجزات .. فهى التى أنقذت حياة الصغير إسماعيل، عندما تركه أبوه إبراهيم مع أمه فى الصحراء بأمر الله .

– قيل إن الصغير ضرب الأرض بقدمه الصغيرة فخرجت المياه .

– قالت يلديز : «لا ، هناك ملاك هو الذى فجرها من الأرض ، عندما كانت أمه هاجر تجرى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء للصغير الذى قد يموت من العطش .. أخذت تتوسل إلى الله تعالى، فاستجاب لدعائها . وتدفقت المياه بقوة لدرجة أنها صاحت : «زم زم» : أى توقفى .

– أصبحت هذه العين مباركة، وهى موجودة فى نفس المكان بالمسجد الحرام بمكة .

– هل هى بعيدة عن الكعبة ؟

قالت يلديز : «لا ، إنها قريبة جدا . توجد البئر داخل كشك .. ويعطيك الرجال الذين يشرفون عليها كما تريدين كوبا أو زجاجة أو حتى برميلا!».

– هل يمكن للناس الاستحمام في البئر ؟

– فى البئر .. لا ، لكن يمكن للفرد أن يأخذ ما يريد من مياه ويقف خلف الحائط ويستحم . نحن لم نفعل ذلك، لكننا شربنا كميات كبيرة !

قالت نمازار وهى مبتسمة : نعم .

قالت يلديز : «إن المؤمنين فقط هم الذين يذهبون إلى مكة، وعلى الطرق، توجد أعمدة على كل منها ثلاث كرات .. هذه هى حدود الأراضى المقدسة التى لا يمكن لغير المسلم أن يضع قدمه عليها.

– لتقصوا علينا رحلة سفركن !

– قالت يلديز : «نمازار هى التى ستروى لكم القصة» .

– هيا يا نمازار، اروى لنا ما حدث فى الرحلة .

– قالت فردوس هانم : «أنا لم أر فى حياتى مراكب غير مراكب النيل، فكيف استقللتما المركب الكبير»؟

– قالت يلديز : «كنا فى غرفة مثل غرف الفنادق ، الرجال فى جانب والنساء فى الجانب الآخر، وكنا نصلى الخمس صلوات بانتظام ونستمع طيلة اليوم إلى القرآن الكريم . فى صباح اليوم الرابع تطهرنا .. كما

أوصيتمونا وتزينت زينة كاملة من منبت شعرى إلى أطراف قدمى .

منذ هذا الوقت لم يعد لدينا الحق فى قص أظافرنا ! ثم ارتدينا ملابس الإحرام البيضاء وصعدنا على الكوبرى مع الرجال الذين كانوا قد ارتدوا أيضا ملابس الحج. كان منظرهم غريبا للوهلة الأولى . رجال شاهدناهم فى السويس بملابس الأفنديات أو الشيوخ .. هم الآن متماثلون ملفوفون في قطعتين من القماش الأبيض غير المخيط، رؤوسهم عارية، وأقدامهم حافية داخل الصنادل . ليس من الممكن معرفة .. إذا كان الشخص الموجود أمامك أميرا أو شحاذا ، وكان الحال بالنسبة لنا، فجميع النساء ترتدين نفس الثوب الأنيق مثل الجوال ! بدون مجوهرات، وبدون مساحيق تجميل، وبدون كحل ، وبدون عطر !

قالت نمازار: «كنا فى أفضل حال . فى الأرض المقدسة، كنا ضيوف الله وأمام الله لا يوجد فرق بين غنى وفقير، أو رجل من المدينة، ورجل من القرية، ولا بين سيد وعبد، ولا بين ثرى عظيم أو أسير ضعيف . مجرد أرواح إنسانية .

قالت يلديز : «لم نكن نهتم أبدا بتغطية وجوهنا أو بأن نأخذ حذرنا، ونحن نتحدث إلى الرجال، لأننا واثقون أن جميع أفكار الحُجاج فى الأراضى المقدسة طاهرة .

– ردت نمازار قائلة : «الشئ الذى أثر فَىَّ بشدة، بمجرد وصولنا إلى الميناء تعالت الأصوات مرددة :

«لبيك اللهم لبيك»

– ردد صوتاً غليظا قائلا :

«لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك»

– صرخت نمازار: إنه الشيخ سليم العجوز يقف بالباب. نهضت نمازار وذهبت تأخذ بيده إلى أحد المقاعد . فقد سمح كبر سن الشيخ له بالجلوس مع النساء .

– قال الشيخ : «هل تعرفون أصل الكلمات التى يرددها الحجاج وهم يدخلون إلى الأراضى المقدسة، والتى نطقها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يؤدى فريضة الحج ؟

لقد تعلمنا من الأحاديث النبوية، أنه عندما تلقى إبراهيم عليه السلام الأمر من الله بأن يدعو الناس إلى الحج، صعد فوق الجبل وعندما نظر إلى نقاط الأفق الأربعة .. صاح : أيها الناس ! إن الله يأمركم أن تأتوا إلى الحج فى بيته الحرام .. فلتلبوا دعوته .

وجميع البشر الذين ولدوا والذين سيولدون . عليهم أداء فريضة الحج إذا استطاعوا وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك !

– هتفت الست عائشة : «يا إلهى ! يا له من شئ غريب ! حتى الذين لم يولدوا بعد صاحوا : لبيك يا ربى !

– قال الشيخ : «الله أعلم بكل شئ .. إنه يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وهو على كل شئ قدير».

– قالت يلديز : «لقد كررنا هذه الجملة حوالى ألف مرة . ونحن فى الزوارق التى أوصلتنا من المركب الكبير إلى أرض الميناء، وأثناء الإجراءات، وفى السيارة التى نقلتنا إلى مكة . وبعد ذلك لم نرددها إلا يوم الحج الأكبر على جبل عرفات.

– ألم تقولوها عندما وقفتم أمام الكعبة ؟

قالت نمازار : «لا ، كررنا بعض الكلمات الأخرى وراء المطوف ، بالمناسبة ، هل تعلم يا شيخ أن المطوف الذى استقبلنا .. هو نفس المطوف

الذى اصطحبك أنت وأبى عندما حججتما منذ أربعين عاما ؟

– الشيخ عبدالله !

فى ميناء جدة، استقبلنى رجل من طرفه وأنهى لى جميع الإجراءات .

أما الشيخ عبدالله العجوز . فكان ينتظرنى بنفسه عند باب مكة .. كان يعرف أن والدى توفى، لكنه كان يتذكره جيدا، وسألنى عن أخبارك ، كم بهرتنا الذاكرة القوية ومعلومات هؤلاء الرجال . ولأنه كان مطوف والدى، أراد أن يكون مطوفى أنا أيضا .. تحمل مسئوليتنا بمجرد وصولنا واصطحبنا إلى منزله القريب من الجامع الكبير .. كان قد أعد لنا شقة جميلة فى الحريم واستقبلتنا زوجته استقبالا حارا .

بعد ذلك بفترة وجيزة، اصطحبنا الشيخ عبدالله إلى الجامع الكبير .

قالت يلديز : حقا يمكنك تسميته بالجامع الكبير ! فلم أر أبدا جامعا كبيرا مثله . أنا واثقة أنه يمكن لمائة ألف شخص الصلاة فيه على راحتهم !

إنه يضم سبع مآذن . تضم الأيوانات .. ألف عامود تقريبا مغطاة جميعهما بالرخام الأبيض ، عند كل باب ممر من الرخام الأبيض يؤدى إلى الكعبة ، أما درجات السلالم والمنابر فهى من الفضة . وفى المساء يضئ الفناء ألف مصباح . يهتم بنظافته بشكل دائم .. ألف خادم . والله .. الذى لم يشاهد الحرم والجامع الكبير فى مكة كأنه لم ير شيئا فى حياته

.

– قال الشيخ سليم : إنه حقا أعظم مساجد العالم لأنه يضم بيت الله الحرام أى الكعبة.

– سألت أم محمود : هل الكعبة كبيرة .. مثل جامع محمد على ؟

ردت نمازار قائلة : لا ، إنها تقريبا ارتفاع أربعة طوابق .

كم هى جميلة بمعطفها الحرير الأسود، وغطاء بابها الحرير الأسود، المشغول بالذهب، وآيات القرآن المكتوبة بالحروف البارزة والمحاطة بحزام من

الذهب !

قالت أم محمود بكل فخر : هذا عمل مصرى ! عندما كنت صغيرة، كنا نحتفل بخروج المحمل، الذى يحمل كسوة الكعبة، وهى عبارة عن الغطاء المبارك من القاهرة إلى مكة . كانت المدينة كلها تجتمع وهى تشاهده يمر ، كان جمل المحمل أجمل جمل فى العالم ! وكان يوجد أمامه على جمل آخر، لاعب الطبلة الذى يدق على طبوله وسط دعوات الجميع . كم كان مشهدا جميلا !

تنهد الشيخ سليم قائلا : إن التقاليد تضيع . هل تعرفون أن هذا التقليد يرجع إلى عصر شجرة الدُرْ ! فهى أول من وضعت الكسوة الحرير على الكعبة .

تعجبت جو لشام قائلة : بكل تأكيد هذه الفكرة لا يمكنها أن تطرأ إلا على ذهن امرأة ! خسارة أن النساء لم تحكم مصر طويلا .. كانت ستفعلن أشياء كثيرة .

قالت يلديز : على كل حال لقد أحضرنا جزءا من الكسوة القديمة التى تم تغييرها ثانى يوم وصولنا . اشتريناها من محل بمكة .

أخذت تفتش فى إحدى الحقائب وأخرجت قطعة من القماش الأسود .. عليه أجزاء من الحروف المنسوجة بخيط من الذهب . أخذوا جميعا يتبادلونها وهم يقبلونها بكل خشوع .

– هل قرأتم تلك الآيات المكتوبة من القرآن الكريم ؟

قالت نمازار : «يا إلهى لقد كانت مرتفعة ارتفاعا شديدا».

قال الشيخ سليم : كان مكتوبا عليها سبع سور بالإضافة إلى تلك الكلمات : «فى الواقع، إن أول دار عبادة تم تأسيسها للإنسانية هى كعبة مكة الشريفة».

قالت الست عائشة : «روى لى والدى أن سيدنا آدم هو أول من بنى

الكعبة»

قال الشيخ سليم : هذا صحيح ، لكن الطوفان دمرها، وكشف الملاك جبريل عن مكانها للنبى إبراهيم عندما أراه الحجر الوحيد المتبقى ٠ وهو الحجر الأسود . وقام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل بإعادة بناء الكعبة على الحال الموجودة عليها الآن، حيث وضعا فى إحدى الزوايا الحجر الأسود، الذى رأيتماه .

قالت نمازار: لقد قَبَّلْتُهُ .. وشَبَّت «يلديز» على أطراف قدميها – لكنها لم تستطع الوصول إليه .

– ضحك الجميع وهم ينظرون إلى الصغيرة يلديز التى رفعت كتفيها محرجة .

ثم صاحت قائلة : هل من المهم تقبيل الحجر الأسود ؟ أليس وثنا ؟

قال الشيخ وهو مبتسم: لا .. بكل تأكيد . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أنا أعرف أنك مجرد حجر لايضر ولا ينفع** ، ومع ذلك قبله :

كما أقر الحج إلى الكعبة بعد أن كسر الأصنام التى كانت تلوثها وأعادها إلى عبادة الله الواحد ، الحجر من بناء إبراهيم وإسماعيل ، ورمز لأخوة جميع العرب . سلالة إسماعيل ، لذلك وجب علينا أن نقبله ونجله أيضا .

– قالت يلديز :

شاهدنا فى بعض الأيام ، رجالا لهم طريقة غريبة فى تقبيلة كانوا مائة يتعاركون ويسارعون لتقبيله. وكان الحراس يضربونهم بالكرابيج .. كى يفرقوهم ؟ أيعقل أن يحدث هذا فى مكان مقدس !

– قالت نمازار :

على كل حال هذا الحجر يبدو فريداً من نوعه .. فله بريق لا نراه حتى

مع أجمل الأحجار الكريمة ، وعطر لايضاهيه عطر آخر .. كنا نشمه من بعيد حتى بين حشود الناس . عندما قبلته شعرت شعوراً غريباً وامتلأت عيناى بالدموع .

قال الشيخ سليم :

إننا نبدأ الطواف من عنده .

قالت نمازار :

كم تأثرت عندما أدينا أول طواف لنا ليلة وصولنا إلى مكة . كان ذلك عند الغروب ، وكان هناك الكثير من الناس حول الكعبة . وكانت جموع الحمام تطير حول المنابر . كنا نرتدى ملابس الإحرام وكما تعرفون لايجب علينا خلع هذه الملابس قبل إتمام الطواف والسعى بين الصفا والمروة . وكان يوجد أيضاً بعض الرجال والنساء الذين يرتدون ملابسهم العادية .

قال الشيخ سليم :

لا تمضى لحظة من الليل أو النهار حول الكعبة إلا ونسمع حول جدرانها دعوات الله .

ردت نمازار قائلة:

هذا صحيح ، فذات ليلة ذهبنا متأخرات ولم نكن الوحيدات. كانت حالة جمال رائعة . لم يكن هناك سوى بعض المصابيح المضاءة ، وكانت النجوم ساطعة ، كما لو كانت لاتسطع فى أى مكان آخر .

اعتقدت أننا لسنا على الأرض وإنما فى ملكوت الله . وفى هذه الليلة، أتممت الطواف بحماس شديد . بعد الطواف شاهدت بعض العجزة الذين يمشون والرجال يكادون يطيرون دون دهشة .

قال الشيخ سليم :

تأثير قدسية المكان .

سألت الصغيرة حسيبة .. التى تأثرت بكلام نمازار :

وماذا يقولون أثناء الطواف؟ :

– لا أتذكر كل ما قاله لنا المطوف أثناء السبع لفات حول الكعبة .. لكننا كنا نكرر كل جملة بطاعة ونتبعه فى سيره ، وكنا نتوقف رافعين أيدينا إلى السماء مثله .. قائلين بصوت عال : «الله أكبر» .

قال الشيخ سليم :

هذا هو دعاء الطواف..

يا إلهى هاهو بيتك ومحرابك المقدس .

أنا عبدك وابن عبيدك .

نطقت كلمات دينك .

وكلمتك هى الحقيقة نفسها .

من يدخل الكعبة يجد فيها السلام .

يا إلهى احفظنى من الشك والشرك والخبث والتفاخر وكل العيوب لتحفظ عائلتى وأموالى من الشر .

يا إلهى لقد ارتكبت عدداً لايحصى من الذنوب تجاهك وتجاه مخلوقاتك لتغفر لى خطاياى الأولى وتعفينى من الثانية .

أنت الحليم الكريم .

وأنت الرحمن الرحيم .

اغفر لى خطاياى وثبتنى ساعة الموت .

– قالت النساء : الله ! يا له من دعاء جميل !

– قالت يلديز :

فى المسجد الحرام بمكة لايحتاج المصلون إلى سجادة صلاة ، بل إنهم يسجدون على البلاط .. فهذه الأرض طاهرة .. فى اليلة الأولى صلينا ركعتين فى مقام إبراهيم .. أى نفس المكان الذى كان يجلس فيه أثناء إعادة بناء الكعبة .

– قالت نمازار وهى تبتسم :

يا يلديز .. كررى ما قلته عندما دعونا ونحن رافعين أيدينا على جدار الكعبة .

قالت :

قلت .يا إلهى أردت أن أكون مرتفعة مثل الهرم الأكبر حتى أعبدك !

– قال الشيخ سليم :

عظيم .

وأنت يا نمازار .. يا أختى لماذا لا تتكلمى عن الشجاعة التى أثبتها وأنت تجرين بين الصفا والمروة !

– قالت نمازار :

لقد كنا متعبين تلك الليلة .. لكن كيف لنا أن نشكو بينما يتسابق المرضي والعجزة بكل فرحة ؟

وقد شاهدنا بعض المؤمنين المخلصين يحملون آباءهم على ظهورهم ويصعدون بهم السلالم .

– قالت يلديز :

من المؤكد أن الله يساعدهم ، فأنا التى لا تحمل سوى جسمها الصغير كنت منهكة . تخيلوا أن المسافة بين الصفا والمروة أبعد من المسافة بين هنا وباب اللوق .

نخرج من المسجد ونسير فى الشارع المسمى بالماسة .

نصعد السلالم لنكون على قمة المروة . ثم نعود إلى الكعبة ونكرر ثلاث مرات :

الله أكبر .. الله أكبر .. الحمد لله ..

ونحن نحرك أيدينا . ثم نعاود النزول ، ونجرى فى الماسة ، ثم نصعد درجات الصفا ونحن نصيح «الله أكبر» ثم ننزل مرة أخرى ونجرى ، نكرر

ذلك سبع مرات .. لايمكننا فعل هذا خارج مكة؛ لأن الله هو الذى يمنحنا القوة ، خاصة بعد الرحلة المرهقة التى نقطعها من جدة إلى المدينة المقدسة .

– ألم تقولى إننا كنا ندعو دون توقف ونحن نسعى فى الماسة ؟

– أنا لم أنس ، لكن لو أردنا أن نكرر جميع الأدعية التى رددناها أثناء الحج ، ما كنا سننتهى حتى يوم الجمعة القادم . لقد رددنا ألف مرة :

«الله أكبر الحمد لله الواحد .. الحمد لله رب العالمين .. لاشىء قبله أو بعده» آمل أن تشفع لنا هذه الأدعية ونكون من أهل الجنة .

– قال الشيخ سليم :

لا تشكوا فى ذلك .. فقد ذُكِرَ فى القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾(١)

صدق الله العظيم.

أدى الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المناسك فى حجة الوداع . وهدم الأصنام التى وضعها الكفار على تلك الهضاب وكذلك الموجودة فى الكعبة، طهر الرسول تلك الأماكن وذكر أن على المسلمين والعرب أن يكنوا مشاعر الحب والتقدير لسيدنا إبراهيم والسيدة هاجر أم جدهم إسماعيل .. التى كانت تجرى بين تلك الهضاب عندما كاد ابنها يموت من العطش .

– صاحت أم محمود قائلة :

كم أن العلم جميل ! مارس الجهلة شعائر دينهم دون أن يفهموا أى شىء لكن عندما قرأنا الكتب ، عرفنا لماذا نذهب إلى هذا المكان ، ثم إلى هذا

١– «سورة البقرة الآية ١٥٨ .

المكان الآخر .. ولماذا ذاك ، ثم نفعل ذلك .

كنت أريد أن يدرس ابني خليل في الأزهر .. لكن رأسه صلب لايفهم أى شيء .

– قالت جولشام :

لا أعتقد أننا نفعل مثل هذه الأشياء المرهقة منذ اليوم الأول .. إن الجزء الأكثر إرهاقا فى الحج .. هو صعود جبل عرفات .

– ردت يلديز قائلة :

صعدناه بالسيارات ، واسترحنا فى الفترة التى حضرنا فيها من مكة .. حيث لم نفعل شيئا سوى الصلاة ، والتنزه فى الشوارع والأسواق ..

كنا نذهب للصلاة كل يوم فى المسجد الحرام ، كما كنا نشرب أيضا من بئر زمزم .

– هل أسواق مكة ممتعة ؟

قالت نمازار :

يوجد فيها بائعون من جميع دول العالم .. الفرس يعرضون أجمل السجاد ، والهنود أروع الحرير ، والأتراك تطريزهم الدقيق على الأقمشة الشفافة أو القطيفة ، باللون الأحمر القرمزى والأزرق والأخضر .. وعلي الجانب يوجد السوريون ومعهم أندر المجوهرات من الذهب والفضة المرصعة بالفصوص ، والصينيون يعرضون أجمل الزهريات والأطباق المصنوعة من الخزف الشفاف ، والسودانيون الذين أحضروا من قلب إفريقيا ....

التوابل والأشياء المصنوعة من السلال ، والهندوس القادمون من الهند .. يمسكون فى أيديهم أنواعا رائعة من الماس ، والمغاربة الذين أحضروا جميع أنواع الجلد المشغول بفن كذلك أغطية ومجوهرات بربرية ، كنت سأنسى بائعى اللؤلؤ والأحجار الكريمة والفيروز والمرجان والياقوت الأحمر .

إنه أكبر سوق فى العالم .

– هذا بفضل الحج وبركة الله على أبناء إسماعيل .

– سألت الست تفيدة :

هل يوجد فى مكة عدد كبير من السكان مثل سكان القاهرة ؟

– قالت نمازار :

لا ! مدينة القاهرة أكبر .

ردت يلديز :

رباه ! لكن الأمر يختلف فى فترة الحج ، فعدد الناس الموجودين في مكة وقتها .. يفوق عدد الموجودين فى القاهرة !

يا أصدقائى ، لابد لكم من مشاهدة الآلاف والآلاف من الحجاج على الطريق .. الذى يصل ما بين مكة ومنى فى اليوم الثامن من ذى الحجة فى المقابل ، نجد جميع بيوت المدينة مغلقة . لايبقى فيا سوى الحراس .. وأؤكد لكم أن أصحاب المحلات الصغيرة ينتقلون إلى منى ، حيث يؤدون أعمالاً جيدة .. لأنهم يربحون ربحا وفيراً . ياله من عدد كبير .. من الناس على الطريق ! جميعهم من الحجاج الذين يرتدون ملابس بيضاء وهم حفاة .. بعضهم يسير على الأقدام وهم يتسارعون ، والبعض الآخر يركبون الحمير .. التى تسير ببطء ، أو الجمال التى قد يصل عددها مائة ألف جمل ، وكل منهم يحمل حاجاً على كل جانب من جوانبه ، وهناك أيضا الهوادج التى تحمل بداخلها العديد من النساء . تمر العربات وسط كل هذا . صدقونى إن سيارتنا لم تكن تسير بسرعة ، وكان على سائقنا أن يكون ماهراً حتى لايصدم أحداً !

حقا يكون الجميع فى هذه الأيام فى رعاية الله !

قالت الصغيرة حسيبة :

منى ليست بمدينة ، فكيف لهذا العدد من البشر أن يسكن فيها ؟ تمتلك

العائلات الثرية فى مكة بيوتا صغيرة تقوم بتأجيرها أثناء الحج .. حيث يسكنون عشرين فرداً فى الغرفة الواحدة . وينصبون حول هذه البيوت آلاف الخيام .. كما ينام الغالبية العظمى من الحجاج .. فى الهواء الطلق . أما نحن فقد كانت خيمة بها بعض المراتب . كنا مكدسين فيها . كل هذا لايهم .. طالما أننا لا نغير ملابسنا خلال تلك الفترة . فضلاً عن ذلك أن جميع الحجاج لايتمسكون بالمكان ، فهناك من يذهبون مباشرة لقضاء الليل فى سهل عرفات . حتى يكونوا على الجبل فى اليوم التالى . وأعترف لكم أننا لم ننم . فى البداية كانت هناك ضوضاء مستمرة ، وشعرنا بتوتر شديد ونحن فى انتظار وقفة عرفات . جلسنا نتحدث طوال الليل وفى صباح اليوم التالى . ذهبنا إلى جبل الرحمة .

صاحت أم محمود قائلة :

لاتقولوا أنكم ذهبتم إلى جبل الرحمة بالسيارة !

قالت يلديز :

ولم لا ؟ أتريدوننا أن نذهب على حمير مثل جداتنا ؟ نحن أيضا لنا زماننا ..

قالت أم محمود :

أليس من الأفضل عدم أداء فريضة الحج فى تلك السيارات التى صنعها غير المسلمين ؟

احتج الشيخ سليم قائلاً :

ما المشكلة فى ذلك ؟ إننا نستخدم المخترعات الحديثة من الأشياء الدنيوية ، فلماذا نحرم أنفسنا من استخدامها لخدمة الدين ؟

فالإسلام يتماشى مع التقدم.

قاطعته نمازار قائلة :

قل لى يا شيخ سليم ، فى طريقنا إلى عرفات وفى الوادى ، أشار لنا

المطوف على مكان حادثة الفيل . ولم أسأله حتى لا أبدو جاهلة .

- ألا تعرفين سورة الفيل فى القرآن ؟

كيف لم تفكرى فيها !

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾[1]

صدق الله العظيم.

- قال الشيخ سليم :

إن رجال حادثة الفيل .. هم الجنود الذين كان يقودهم أبرهة ملك الحبشة الذى أراد الاستيلاء على مكة .. وهدم الكعبة .

وكان يتقدمهم فيل كبير يخيف الناس. وقد اعتدى هؤلاء الجنود على أهل مكة عند وادى عرفات ، وساعد الله أهل مكة حينما أرسل لهم طيراً أبابيل تلقى الحجارة الصغيرة المقتطعة من جهنم على الغزاة .. فقتلتهم جميعاً .

هذا الأمر يثبت حماية الله للكعبة التى بناها سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ، والتى كانت أول بيت وضع للناس قبل قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى الرغم من تدنيس الأصنام لها ، لذا أعاد الرسول صلى الله عليه وسلم أداء مناسك الحج أثناء فتح مكة .. وذلك بأمر من الله . ودليل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أدى بنفسه الطواف والسعى . ثم توجه إلى جبل عرفات ثم إلى جبل المعرفة الذى كان دائماً ما يعتبره الناس مكاناً .. مقدساً .

ووفقاً للروايات أن آدم وحواء التقيا وتعارفا بعد أن كانا هائمين ومفترقين

---

١ - ، سورة الفيل

عن بعضهما البعض وذلك عندما أهبطا من الجنة إلى الأرض . وهنا تلقى سيدنا إبراهيم من الملاك جبريل تعاليم الله تعالى . كما اختار الرسول صلى الله عليه وسلم . هذا المكان ليسلم للمؤمنين أخر رسالة. وكان ممتطيا جمله الأبيض . صعد إلى قمة الجبل الذى يطلق عليه جبل الرحمة . وهنا تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم طويلاً إلى جموع المؤمنين المحتشدة حوله ، حيث إنه كان يشعر أن ساعته قد حانت .

قال لهم : استمعوا إلىّ ، إنما أنا بشر مثلكم لعلي لا ألقاكم بعد عامى هذا .

وهنا تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم لآخر مرة كلام ربه الذى أبلغه للناس بسرعة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(١)

صدق الله العظيم .

كان ذلك اليوم التاسع من شهر ذى الحجة .

ومنذ ذلك الحين يلقب كل مؤمن يحضر الخطبة والصلاة على الجبل .. باسم الحاج ، حتى وفاته .

قالت يلديز :

وصلنا هناك قبل صلاة الظهر ، ولم ندخل سوى بعد صلاة المغرب . كان الجو حاراً ! .

من حسن الحظ نصبوا لنا خيمة، وكنا نجلس فى الظل بين الحين والحين. بدون ذلك ما كنا نستطيع أن نكمل.

ردت نمازار قائلة: كنا نرى الإمام الذى يخطب من بعيد . كان جالساً

---

١ - «سورة: المائدة الآية ٣»

على جمل أبيض، واقفا بالقرب من عامود أبيض على قمة جبل الرحمة .. لم يكن هناك أى شخص بالقرب منه .. ولا حتى الملك.

لم نتمكن من سماع كلماته. لكن المطوِّف كان يقول بعض الأدعية بصوت مرتفع وكنا نردد وراءه.

قالت يلديز بحماس: كان الجميع يدعو ويصيح بصوتٍ عالٍ في نفس الوقت. وكررنا مراراً في هذا اليوم: «الله أكبر .. الله أكبر! لبيك اللهم لبيك.. ها أنا ذا ياربى» وكنا نَحَرِّك مناديلنا فى اتجاه جبل الرحمة.

أكملت نمازار قائلة بكل حماس: نعم، أمر مؤثر للغاية.

شاهدت رجالاً يبكون تأثراً بإيمانهم.

سألت يلديز قائلة: هل لاحظتم أولئك الزنجيات اللاتى كن يدفن خصلات من الشعر فى الرمال؟

لقد أسفت على أننى لم أفعل المزيد من هذا، فمن المؤكد أنه شىء يجلب الحظ!

لكن كان الوقت قد فات لأنه لايحق لنا قص شعرنا أثناء الحج!

قالت نامزار وهى مبتسمة: يايلديز هل يمكنك أن تُقسمى أنك لم تفعلى ذلك؟.

أقسم بالله أننى لم أفعل ذلك فى ذلك اليوم، وإنما فعلته فى مِنَى عندما أصبح لى الحق فى تسريح شعرى، فأزلت الشعر الذى كان لاصقا فى المشط، ودفنته في الأرض، لكن لم أفعل ذلك على عرفات، لأنه من المؤكد سيكون أقل بركة.

قالت نمازار: يا إلهى! أعترف لكم أننى سُررت كثيراً عندما استطعت الإستحمام وتصفيف شعرى .. وتغيير ملابسى فى اليوم التالى عند عودتى من مِنَى فقد مكثنا عدة ساعات نائمات على الأرض فى المزدلفة لكن لم أنم، فقد كنت متعبة، وكان الوقت طويلا، كما أن رجم الشيطان فى مِنَى أجهدنى.

علَّق الشيخ سليم قائلاً: هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم.

قالت يلديز: لقد وجدتُ هذا المنسك ممتع للغاية! حيث اشترى كل منا واحداً وعشرين حجراً من البدو. رأيت الشيطان الذى نرجمه .. عبارة عن عامود من الحجارة، وكان علينا أن نجتهد حتى نخترق الحشود ونصل بالقرب منه، ونلقى بالسبع جمرات. كان هذا الشيطان.

شيطان أبو الأنبياء إبراهيم. فى اليوم التالى رجمنا شيطان السيدة هاجر وشيطان سيدنا إسماعيل بصعوبة أقل.

– صاحت أم عائشة: كيف هذا؟ هل هناك ثلاثة شياطين؟

– ردت يلديز: ولم لا؟! إن كوديا الجمالية تستدعى حوالى عشرين شيطانا عندما تقيم «زار»!.

قال الشيخ مبتسما: لا، فى مِنَى لايوجد سوى الشيطان الكبير .. إبليس، الذى حاول أن يغوى سيدنا إبراهيم والسيدة هاجر وسيدنا إسماعيل.

كان هذا فى الوقت الذى كان سيدنا إبراهيم يستعد فيه للتضحية بابنه بأمر من الله، فى نفس المكان الذى شاهدتم فيه الأعمدة، حيث ظهر له الشيطان وحاول إغواءه ببعض الكلمات الخادعة.. حتى يعصى أمر الله، لكن سيدنا إبراهيم زجره ورجمه بالحصى.

توجه الشيطان .. إلى السيدة هاجر. التى تصرفت مثل زوجها.

حاول أن يقنع الصغير إسماعيل .. لكنه تصرف مثل أبويه، واعترف الشيطان بهزيمته.

– قالت الصغيرة نبيهة: لو رمى كل حاج .. من ملايين الحجاج سبع سنوات، إذن الشيطان سيُدفن تحت جبل من الحصى.

ردت عليها يلديز قائلة: أيتها البريئة .. ألم تسمعى قولى إن البدو باعوا لنا الحصى؟ فمن أين يأتى ذلك الحصى؟

– قالت نمازار: إن أيام عيد الأضحى الثلاثة كانت جميلة جداً وقد استرحت فيها، كانت مثل الإجازة التى نقضيها بعيداً عن أى هموم.

– ما عدد الخراف التى ضحيتم بها؟

– ثلاثين!

– إن سيدنا إبراهيم عليه السلام، لم يذبح سوى خروف واحد بدلاً من الصغير إسماعيل! كم كنت مسكيناً يا إسماعيل، كان تدخل الملاك جبريل فى وقته، فقد كانت السكين على رقبته!

قالت يلدين: لقد ذبحنا مائة ألف، أنا لم أشاهدهم وهم يذبحون، فنحن النساء لا نغادر الخيام أبداً، لكن لمحتهم وهم نازلون من عرفات! لم أتخيل وجود مثل هذا الكم من الخراف فى المملكة العربية السعودية.

– سألت حسيبة: هل أكلتم الثلاثين خروفاً؟

ردت نمازار قائلة:

لم نأكل ولو ضلعاً واحداً، فقد وزعناهم كلهم لله.

– قالت يلدين: إن البدو هم الذين تناولوهم.

قال الشيخ سليم: هذا مانص عليه القرآن الكريم. فالتضحية .. هى عبارة عن مظاهرة من العطاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾(١)

صدق العظيم

وأضاف الشيخ قائلا: أوضح القرآن الكريم مفهوم التضحية بالحيوانات، والتى ليس لها أى صفة مشتركة مع من كانوا يعبدون الأوثان.

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – «سورة: الحج الآية ٣٧».

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

صدق الله العظيم.

قالت الست عائشة: أعتقد أن بدو مكة يأكلون خلال هذه الأيام الثلاثة مايكفيهم طيلة العام! ولا بد أنهم يأسفون على أن الحج لايأتى سوى مرة واحدة فى العام.

قالت يلدين: إنهم يجففون اللحم لفترات طويلة.. ويعرفون كيف يستفيدون من أصواف وجلود الخراف التى تُذبح، إنهم يستخدمون الجلود فى صناعة النعال والمعاطف، وقرب المياه والزيت، وأجولة القمح، والبلح، وفى مكة يصنعون الأحذية والحقائب من الجلد المتين .. بشكل جميل.

قال الشيخ سليم: إن أبناء إسماعيل عليهم مساعدة بعضهم البعض فهم إخوان فى الدين.

- أنتم لم تتحدثوا عن الهدايا التى أحضرتموها، أعتقد أنها أسعدت الكثيرين.

قالت يلدين: ياجولشام لو كانت الهانم بمفردها، كانت ستوزع كل شىء فى اليوم الأول .. قبل الحج.

ومن حُسن الحظ أننى أعددت كل شىء: مثل .. هذا الصندوق لابد أن يتم فتحه فى مكة، وهذا الآخر فى منًى، كذلك فى المدينة المنورة.

- قالت نمازار بكل هدوء: نحن نهتم بمراقبة التزامات ديننا.

- أكد الشيخ قائلا: إنه مكتوب فى القرآن:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

---

١ - «سورة: الحج الآية ٣٧».

٢ - «سورة: المزمل الآية ٢٠».

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) . **صدق الله العظيم**

– سألت الست تفيدة: بما أنكم لم تأكلوا من الخراف، فماذا فعلتم فى خيامكم أثناء أيام العيد الثلاثة .. يانمازار؟

– تعارفنا إلى جيراننا .. كنا فى الجناح المصرى بجانب ناس من المنصورة وأصبحنا أصدقاء .. ووعدتنا النساء بزيارتنا فى القاهرة، كما تعارفنا أيضاً إلى بعض السوريين، وكنا غالبا ما نتحدث معهم.

قال الشيخ سليم: إقامة الحجاج فى مِنَى تشبه المؤتمر السنوى للعالم الإسلامى، وقد كان فيما مضى، مؤتمر حقيقى .. حيث كانت تؤخذ فيه أهم القرارات من أجل الدفاع ونشر الإسلام.

أكملت نمازار قائلة: فضلاً عن أن علاقات الصداقة التى تبدأ فى مِنَى وتمتد إلى مكة والمدينة، لقد مكثنا يومين فى مكة بعد إتمام السعى وطواف الوداع، وكنا نحرص على أداء صلاة الجمعة فى المسجد الحرام، بما أن ثواب صلاة الجمعة فى مكة يساوى ثواب سبع سنوات من الصلاة العادية.

أضافت وهى تتنهد: وفى المساء ودعنا مكة والأصدقاء الذين تركناهم أو الذين لن يذهبوا معنا فى نفس الاتجاه، وخاصة مطوفنا العجوز .. الشيخ عبدالله وعائلته، كنا متأثرين جداً عند عبورنا الأبواب لآخر مرة .. كانت السيارة قد توقفت على ارتفاع .. تمكنا من خلاله رؤية المدينة لآخر مرة .. أخذنا نُحرك مناديلنا ونبكى، ونصيح دون أن نفهم مانريده سوى رغبتنا فى العودة يوما ما إلى مكة والكعبة المشرفة. تحركت السيارة مغادرة، وأخذت المدينة البيضاء تتلاشى أمام عيوننا المليئة بالدموع، ولم يبق أمامنا سوى الصحراء من جديد .. قضينا الليل فى جَدَّة، وفى صباح اليوم التالى، استأنفنا الرحلة فى اتجاه المدينة، وكان هذا هو الجزء الأكثر إرهاقاً فى رحلتنا.

سأل الشيخ سليم: هل قطعتم المسافة من جَدَّة إلى المدينة فى يوم واحد؟

لقد قطعتها أنا ووالدك فى تسعة أيام!

– قالت يلديز: حقا، ذهبنا أسرع منكم، لكننا تعرضنا لهزات كثيرة كما لو كنا سافرنا مثلكم على ظهر الجمال! كان الطريق سيئا لدرجة أننى أحيانا ما كنت أتخيل أن معدتى وكبدى وقلبى قد انفصلوا عن جسدى. وبما أننى لست ثقيلة كنت أتأرجح مثل الكرة داخل السيارة.

سألت نمازار: هل ندمت على ذلك يايلديز؟

– أندم؟ لعنة الله علىَّ لو كنت ندمت! كيف أندم لرؤية مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبره؟

أقسم لكم يا أصدقائى أننا عندما وصلنا .. وعلى بعد مسافة معينة من المدينة كان الوقت قد تأخر، وكانت الشمس قد غابت، ومع ذلك شاهدنا نوراً عظيماً فى السماء. كان مشهداً رائعاً .. لم أنم، كانت عيناى مفتوحتين ولم أحلم وقد رأت نمازار هذا النور العظيم مثلى تماماً.

– همهم الشيخ قائلاً: المدينة المنورة! إنه النور الإلهى الذى يشع من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.. وهو يضىء الطريق للمؤمنين.. الذين قادهم دينهم إلى المدينة المنورة.. التى هى مهد الإسلام.

قالت نمازار: المدينة لا تشبه مكة. فحول منازل المدينة، توجد الحدائق العربية التى تضم مختلف أنواع الفواكه والخضراوات..

كما تجرى المياه فى كل مكان.. فى القنوات التى تنبعث من المنابع.. التى لا تحصى، كما أن للمدينة وجه مبتسم، وقد شعرنا فجأة أننا ابتعدنا عن الصحراء وعن البدو لنجد أنفسنا وسط أهل المدينة المرهفين.. الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم الإسلامى.. ليختموا حياتهم فى جمال وسلام المدينة؛ المدينة هى المكان الذى فيه شفاء الرجال من جراح الحياة العميقة.. شعرت أننى أود الهروب إلى المدينة حينما أشعر يوماً باليأس.

سأل الشيخ سليم: أين نزلتم؟

– عند أحمد الشريف. كانوا فى انتظارنا عند باب المدينة لتوصيلنا إلى منزله. عاملونا أفضل معاملة. إحدى النساء.. وخاصة خديجة، كانت تحرص على راحتنا.. وجعلتنا نقابل العديد من صديقاتها.. وأخذتنا لزيارة البعض الآخر.. وقدمتنا لكبار أهل المدينة.

– لقد استقبلنا أنا ووالدك.. فهو مراسل عبدالله مطوف مكة. هل مازال أحمد الشريف على قيد الحياة؟

– نعم، لكن الذى كان فى انتظارنا هو مصطفى.. أحد أبنائه. زوج خديجة. وكان محمد الناجى هو المرافق لنا.

قاطعت الست تفيدة بلهفة قائلة: هل شاهدتم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم؟

– قالت نمازار: نعم. ووضعت عنده الرسالة التى سلمتيها لى، وكذلك رسالة زينب، وأمينة. ولم أنس شيئاً. لم يبعد المسجد النبوى عن المكان الذى كنا نسكن فيه كثيراً، وترددنا عليه عدة مرات. مدخله يشبه مدخل جامع الرفاعى. بمجرد عبورنا لرواق المدخل، لا نرى شيئاً سوى القبة الخضراء الجميلة.. التى تحتوى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

صاحت يلديز: لا يمكن لأحد أن يخطئ .. بمجرد الدخول يدرك المرء على الفور أنه فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أن بجوار القبر من الشرق قبرىّ صاحبيه أبوبكر وعمر! كم تمنيت السجود فوق الأرض المقدسة!

قالت نمازار: كانوا سيذهبون بك إلى السجن. ألم ترى الجنود الذين يحرسون قبر الرسول ويمنعون أى فرد من الاقتراب منه.

صاحت الست عائشة مرة أخرى: يضعونها فى السجن لأنها تقبل قبر الرسول صلى الله عليه وسلم؟

قال الشيخ سليم: تشبه بعض علامات التقديس المبالغ فيها.. فى عبادة الأوثان، وهذا ما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم. بشكل قاطع.

أكدت نمازار هذا الكلام بحركة من رأسها.

أضافت قائلة كما أن الصلاة أمام القبر ممنوعة.. وإنما نظل واقفين نكرر كلمات المدعى الذى يعدد أفضال الرسول ويصلى ويسلم ويبارك عليه! تأثرت وأنا أقف أمام رسولنا في قبره وأنا أشعر أنه نفس المكان الذى كان يعيش فيه - لم أستطع منع دموعى من الجريان على خدى.

جلسنا لحظة على بعد.. كنا لا نسمع سوى الصمت يقطعه هديل الحمام وصوت الشيخ، فكما تعرفون أن قراءة القرآن بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.. لا تنقطع ليل نهار.

قالت يلدين: أحببت كثيراً صوت المؤذن فى المدينة. يضم مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم خمس مآذن، وكل من المؤذنين الخمسة يرددون الأذان بعد الآخر.

- ويمكن أن يكون الأذان أجمل من هنا؟ هنا رفعه بلال صاحب رسول الله، أول المؤذنين! أغرقت كلمات الشيخ سليم جميع الحاضرين فى لحظة تأمل وروعة.

لكن سرعان ما عاد الجميع للسؤال:

من المؤكد أنكم رددتم الدعاء فى الروضة وأنتم تدخلون المسجد؟

قالت يلدين: ذهبنا إلى هناك خمس مرات! فالصلاة فى الروضة الشريفة تساوى ألف صلاة فى أى مكان آخر.. هذا غير الكعبة. احتجت نمازار وهى مبتسمة على هذه الحسابات!

قالت: أنت تحسبين مكاسبك كثيراً يايلدين. لو كنت مكانك لمكثت ساعة فى الروضة! وكنت سأقول لنفسى إننى فى الحديقة التى كان يصلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم. ويعلم الإسلام لأوائل المؤمنين: كل عامود من الأعمدة الرخام التى تحوطنى حل محل جذع من جذوع النخيل.. الذى كان يشكل الأعمدة الحقيقية فى المسجد. كنت سأرى الرسول وهو يبنى بنفسه الجدران. وكنت سأسمعه يقول للمؤمنين فى آخر جمعة فى حياته: لم يخلد

أى نبى من الأنبياء الذين سبقونى سأعود إلى الذى أرسلنى. وهاهى أخر وصية لى. ليحب كل منكم الآخر وليساعد كل منكم الآخر ولتفعلوا الخير. هذا هو أهم شىء.

كنت سأتخيله وهو فى لحظاته الأخيرة فى غرفته المطلة على الروضة.. حيث كان واضعاً رأسه فى حِجْرِ زوجته السيدة عائشة.. وكان قد حرر عبيده وقام بتوزيع أمواله على الفقراء فى الروضة الشريفة بكيت من التأثر.

سادت لحظة صمت. تذكر الجميع شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.. والتى تحدثت عنها نمازار.

التى أضافت وهى تفكر: أنا الآن فهمت لماذا يقيم المؤمنون فى المدينة لينهوا فيها أيامهم.. مثل تلك السيدة التى عرفتنا عليها نجيبة. إنهم يتمنون أن تكون نهايتهم هى الجنة.

صرخت يلديز قائلة: أكدوا لى أن الروضة الشريفة هى جزء من الجنة.

سأل الشيخ سليم: هل ذهبت إلى هناك؟ هل صحيح أن الوهابيين دكوا مقابر شهداء غزوة أحد؟

– قالت يلديز: هذا صحيح. فلم يبق أى أثر لها.. والشىء المحزن جداً هو مدافن البلقية!

فالوهابيون لم يبقوا أى شىء على حاله ولا حتى مقابر زوجات الرسول التسع. وإنما دمروا كل شىء مثلما دمروا قبور الصحابة وقبر سيدنا الحسن. حفيد رسول الله.

صرخت أم منصور قائلة: يارب احفظنا من التعرض لمثل هذه الأعمال.

– قال الشيخ سليم مبتسماً: أنا واثق أن يلديز هانم لم يفتها أن تذهب ولو مرة واحدة على الأقل إلى جامع القبة.

سألت الست تفيدة: هل جامع القبة موجود فى المدينة؟

إنه يرتفع عدة كيلو مترات جنوب المدينة.. وسط الحدائق والنخيل. فى المكان الذى توقفت فيه ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من

مكة وجاء إليه أوائل المؤمنين فيه، ولحق به على بن أبى طالب. أمره الملاك جبريل ببناء مسجد فى نفس المكان.

قالت نمازار: إن المدعى أكد لى أن الأجزاء السفلية فى الجدران الحالية للمسجد.. هى التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم.. قد بناها. إنه إذن أقدم مسجد فى العالم.

قالت يلدز: لم يستطع كل من أبى وزوجتى.. رحمهما الله من ترك أموال لى! فاستغليت الحج حتى أردد بعض الدعوات المباركة لهم فى العالم الآخر.

انظرى يانمازار .. ياصديقتى.. أنا لست أنانية.. فالدعوات التى تمنيتها فى الكعبة وعلى جبل عرفات وعند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وفى جامع القبة، كنت أطلب فيها من الله الرحمن أن يجازيك ألف مرة على الخير الذى فعلتيه معى، وأن يرعى عائلتك وأصدقائك ويمنحك قدراً مباركاً.

عاشوراء



«عاشوراء مباركة ! عاشوراء مباركة! عام خير عليكم أيها المؤمنين !
احفظوا أنفسكم طوال العام من العين الحسودة واشتروا البلسم المبارك»
تسمع الست نفيسة النداء وهى فى المطبخ مع بناتها :
قالت لهن :
إنه هو نادوه بسرعة .
أسرعت جاسبيها إلى الشارع أمام بائع البلسم المبارك وأطلت رءوس بعض النساء من النوافذ وظهر البعض الآخر على العتبات :
– تعال عندى يا والدى !
– أنا أولا يا شيخ !
– نقودى جاهزة وأنتظرك من الفجر يا جالب الحظ !
لكن جاسبيها أخذت العجوز. إنها تعرف العجوز عبدالحميد جيداً .
فى بداية المحرم من كل عام كما تخول لها ذكرياتها ، تسمع نداءه فى الحارة وتظهر هيئته المعتادة التى تغطيها صينية متعددة الألوان هاهى داخل المطبخ :
– عام سعيد عليكم جميعا !
– وعليك أيضا يا والدى !
انحنى وساعدته جاسبيها فى إنزال صينيته على الأرض . وحملقت فيها البنات الثلاث . فى الوسط ، وعلى ورقة سوداء يوجد كومة كبيرة من البودرة الموف :
إنها التافتاه المعطرة بالبلسم وبالكزبرة وحبة البركة . كما تتراص حولها خمس ورقات أخرى مختلفة الألوان عليها خمسة أكوام أقل حجما :
الأولى عليها بخور والثانية بودرة شيح والثالثة ملح أحمر والرابعة ملح أصفر والخامسة ملح أزرق .

مدت الست نفيسة طبقا . ووضع عليه العجوز تباعا قبضة من البخور ثم الشيح وقبضة من كل نوع من أنواع الملح وأعاد هذه الكرة سبع مرات . وأخذ ينشد تلك الدعوة :

بسم الله ! الله الواحد ! الأحد ! ملك العالم ! سيد الشرق ! والغرب !

نحن عباده الخاضعين لإرادته !

ثم يقرأ سورة الفلق :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾[1]

صدق الله العظم

أشعلت الست نفيسة الموقد وألقى عليه العجوز عبدالحميد بعض حبات الملح والبودرة ، طقطق الملح وملأ الدخان المعطر الحجرة بفضل الملح وفضل الأعشاب ، لتطرد عين الرجل التى تجرح مثل الفأس لتطرد عين المرأة الحادة مثل الساطور لتطرد عين الولد الحادة مثل السكين لتطرد عين البنت التى تشك مثل المسمار نهض العجوز قائلا :

ليكن كل من فى هذا البيت بعيداً عن العين الحسودة :

الزوج والزوجة والبنات والأولاد والفرن وأوانى المطبخ والبوفية والمكنسة والفراش والسجادة والدولاب والصوان والباب والقفل والجلابية والملاءة وتوكة الشعر والطربوش بفضل الأعشاب والملح ليفقس البيض كتاكيت وتصبح الكتاكيت ديوكا وتلد النعاج ثلاثة حملان وتصبح الحملان كباشاً ولتتزوج البنات والأرامل وتلد النساء العاقرات وتعيش العائلة فى وئام أخذ العجوز يدق على البلاط قبل أن يضع فى جيبه قطعة الفضة التى أعطوها له . ثم

---

١ - «سورة: الفلق»

رفع الصينية مرة أخرى على رأسه وقال :

– بارك الله فيكم ! وانغلق الباب مرة أخرى عليه . وأخذ صوته يدوى مرة أخرى فى الشارع وهو يقول :

– عاشوراء مبارك ! وعام سعيد عليكم أيها المؤمنين !

ذهبت جاسبيها لتبحث فى الصندوق الكبير عن العلبة الحديد التى كانت تحتوى على بواقى البلسم من العام الماضى ، أفرغوها ووضعوا فيها الخليط الثمين . سيستخدمون هذا الخليط فى العديد من المناسبات التى سيمرون بها خلال هذا العام .

يوما ما ستصاب زكية بالسعال وفى يوم آخر ، ستصاب ليلى بالحمى أو ستغطى الحبوب وجه الصغير منصور . وبالطبع ، سيلجئون إلى الطبيب لو استدعى الأمر ذلك لكن أحيانا ما يأتى المرض من عين حسود ولا يستطيع الطبيب فعل أى شىء . فمثلا يوجد كم من العيون الحسودة والنساء العقيمة التىَ لاتطيق النظر إلى أطفال فى صحة جيدة .. كما يوجد العديد من الطائشين الذين يجلبون الشر بمجاملة غير محسوبة . قليل من الملح والبودرة على الموقد وبعض الدعوات وتطرد العين الشريرة . بفضل الله، الست نفيسة الله ، ليس لديها بنات للزواج يمكن للحسودات أن تعملن لها عملاً .. لكن زوجها بيومى بائع أثاث فى شارع الغورية وأحيانا ما يدافع عن نفسه ضد شخص غيور يحاول أن يجلب له سوء الحظ .. فى هذه الحالة ، لابد من استخدام بلسم العجوز عبدالحميد الذى يتم وضعه على النار مع قراءة سورة الفلق .. وقد قال الله تعالى إنه يجب على الناس أن تثق فيه أمام شرور الحساد .

بيومى زوج الست نفيسة ليس فى محله فى هذه الساعة ولم يضع قدمه فيه . وكعادته ، خرج مبكراً من منزله هذا الصباح وعندما اقترب من جامع

الفكهـانى ، سـمـع صـوت المؤذن وتوقـف وهـو مندهش لأنـه لم يكن وقت الصـلاة. ولم يكن هذا الصـوت هـو صـوت الأذان الذى يطلقـه المؤذن مـن أعلى المئـذنة وإنما كـانت سـورة التـوبة . عـرف بيـومى الآية التى وضـعت التقويم للمؤمنين :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّـمَـوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَـا أَرْبَعَـةٌ حُـرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . . .﴾(1).

صدق الله العظيم

– قال بيومى : الله ! كنت سأنسى انه الأول من محرم أومأ بوجهه وبدلا من إكمال السير فى طريق محله توجه إلى الحارة التى فى جانب الجامع وتوجه إلى قهوة صديقه المعلم إبراهيم وأخذت الآيات المقدسة تدوى فوق رأسه . وهاهى الآن قصة هجرة الرسول إلى المدينة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

صدق الله العظيم

---

1 – «سورة: التوبة

2 – سورة التوبة

– تذكر بيومى وقال :

نعم ، إنها ذكرى الهجرة !

– قال له المعلم إبراهيم وهو يستقبله : عام سعيد !

– تذمر بيومى قائلا :

أنت تتكلم على راحتك لأنك ستبيع كل يوم عدداً من فناجيل القهوة !

لكن أنا سأقضى شهراً كاملا دون زبون واحد!

إن ذهابى إلى المحل لن يجدى :

إننا فى محرم !

ربنا يحفظك! ربما تبيع غرفة نوم

– ولا حتى كرسى !

يتكرر نفس الشىء كل عام . ويصيب الحظ السىء جميع مشتريات الأثاث فى شهر محرم . لكنى بعت شيئا واحداً ذات يوم .. بعت بالتحديد غرفة نوم . وللأسف أعادها لى المشترى بعد ثلاثة أيام ، ففى نفس اليوم الذى وصل فيه الأثاث إلى منزله ، غادرت زوجته شقة الزوجية !

أنا أمين ولو جاءنى زبون اليوم سأنصحه بالانتظار حتى الشهر القادم .

– صرخ أحد الزبائن الذى كان يشرب نارجيلته فى أحد الأركان المظلمة قائلا :

لست الوحيد الذى يعانى يا صديقى .. أنا أيضا لن أقوم بأى عمل هذا الشهر .. لو جهزت حلة ستكون لشخص مسيحى وحتى المسيحيين يفضلون انتظار وقت مناسب . فمن يخيط ملابس فى شهر محرم يكون واثقا أنها ستتقطع على الفور أو ستجلب له النحس !

ها هو صعب قد حضر بدون ابتسامة !

وصعب رجل قصير ذو شارب كبير ونظارة .. إنه يرتدى طربوشا على

رأسه .. رفع ذراعيه القصيرين إلى السماء وهو يقول :

يا الله يا رحيم ! شهر بطالة ! لايوجد حفلات أو زواج أو طهور أو أقل سهرة أو أقل استقبال أو تلاوة قرآن تعقبها بعض الموسيقى فى محرم ! لا أحد يريد سماع الموسيقى فى محرم ! حتى تلاميذى لا يأخذون دروسهم ! عندما سمعت المؤذن يقرأ قصة الهجرة فهمت على الفور فأمسكت بعودى وفككت حباله ثم أعدته إلى غلافه وقلت له : يا عودى الصغيرها أنت ستستريح لمدة شهر طويل ! وسأسعد لأننى لن أخرجك من هنا لأحملك إلى يعقوب الذى يُقْرِض برهن فى شارع محمد على» .

أنا أعرفه هذا البخيلِ العجوز لابد من الحديث معه لساعات طوال حتى نحصل منه على قرض قيمته جنيهان مقابل تسليمه عوداً جميلاً ثمنه عشرون جنيهاً على الأقل .

– قال بيومى :

عندما نصل إلى نصف محرم ، سيطلب من هذا الرجل بعض المبالغ التى لن يقدر عليها . جميع التجار باستبعاد البقالين والجزارين سيذهبون إليه حاملين مجوهرات زوجاتهم وبناتهم ! غير أننا لا نكسب أى شىء ، تحملنا زوجاتنا عبء اللوز والبندق والفستق والزبيب فى يوم عاشوراء .. كم يكونون سعداء من تكتفى زوجاتهم بتربية دجاجة ولا تطلب منهم إوزة أو ديكاً روميا!

– صرح صعب قائلا بلهجة رسمية ،وهو يرجع طربوشة إلى الخلف: كان لابد من التفاهم ولو لمرة واحدة ورأى دائما أن هناك لبساً. هل محرم شهر مبارك أم شهر نحس؟ أنا أزعم أنه شهر مبارك فهو شهر الهجرة ! والشهر الذى خرج فيه نوح من سفينته بعد نهاية الطوفان وهو الشهر الذى التقى فيه آدم وحواء للمرة الأولى بعد طردهما من الجنة !

هذا هو كل ما نحتفل به يوم عاشوراء ! وكلها أسباب تدعو للفرحة ولإقامة الحفلات . فضلا عن ذلك ، حضرتُ محرم فى أحد الأعوام فى أسطنبول وكانت تقام الاستقبالات وحفلات الزواج والموسيقى .

– قال المعلم إبراهيم ذهب ابن أخى للبصرة وبغداد والعراق وروى لى أن الناس هناك كانت تصوم وتلبس ملابس الحِداد وتنتحب لأن يوم عاشوراء هو ذكرى استشهاد سيدنا الحسين فى كربلاء .

– قال صعب : هذا صحيح غير أننى عرفت عن طريق زوجتى وهى كودية أن جميع الجن الموجودين فى العالم يجتمعون فى كربلاء يوم عاشوراء لإحياء ذكرى حفيد الرسول الشهيد . كما أنهم طوال شهر محرم يبحثون فى مصر عن أحد الأرواح لكن دون جدوى . وهذا أمر غير مُسلٍ لنا : لايمكن إقامة أى زار فى محرم وتصبح زوجتى فى حالة بطالة !

– مثلى ومثل زوجتى يا صديقى ! كم يفلس الكثيرون من جراء تلك العادة السيئة وهى عدم إقامة حفلات أو إجراء أى أعمال فى محرم . انضم إلينا رجل جديد وهو نحيف ذو شعر طويل .. حيا الصحب وجلس القرفصاء على الحصيرة ، بجانب صعب .. إنه صِديقه فى الأوركسترا جُمْعه عازف الكمان .

– أضاف قائلا كانت الأمور ستكون أقل صعوبة فى الاحتمال لو كنت أنا فقط الذى توقفت عن العمل بينما كانت زوجتى تكسب بعض القروش ! لكن الخياطة أيضاً تتوقف عن العمل. أنا واثق أن زوجتى لن تخيط ولا حتى فستان أطفال ! أنا لا أعرف ما الذى يمنعنى من بيع الكمان الخاص بى لأعمل بقالا أو بائع فول !

– سأله رشاد الموسيقى هل لديك أطفال ؟

– نعم ، الله أكبر ! لدى خمسة لم يتم أكبرهم عامه الثامن وصغيرهم

مازال يحبو .

– يمكنك إذن تكوين ثروة ! ما عليك إلا أن تغطيهم بالثياب الرثة هم وزوجتك ... تحمل ولدا على كتفها وتجر اثنين فى تنورتها .. كما يمكن لابنتك الكبيرة أن تفعل نفس الشىء . وترسلهم يوماً ما فى حى الحسينية ويوما آخر فى السيدة زينب . كما يمكنهم طرق أبواب الأثرياء وتوقف المارين الذين يرتدون ملابس قيمة وهم يقولون :

«زكاة العشر ، ياسيدى ! زكاة العشر ، ياست ! أستحلفك بالله.

أضمن لك أنهم سيكسبون فى يوم واحد أكثر مما ستكسبه أنت فى أسبوع بإمساكك بالكمان وإمساك زوجتك بإبرتها . أنا أعرف تلك الأحياء جيداً لايمكن لأهل الحسينية رفض أى شىء عندما نستحلفهم بالله وخاصة يوم عاشوراء . لكن هناك منافسة ! فالشحاذون فى هذا الشهر ينتشرون فى كل مكان مثل الذباب .

لوى جمعه شفته السفلى تعبيراً عن احتقاره للفكرة وقال :

– طبعاً أنت تمزح يا بائع العينات ! نحن نكسب قوتنا بشرف ولم نشحذ أبداً !

– لا تغضب يا صديقى .. أنا أمزح وليس فى نيتى مضايقتك على الإطلاق . لكنى عرفت نساء حالتهن متيسرة تصطحب أولادهن يوم عاشوراء فى الشارع حتى يطلبوا الزكاة من المارة لمجرد أن القروش أو الملاليم التى يأخذونها على سبيل الزكاة معروفة بأنها تجلب الحظ .. تخيطها النساء داخل عصابة رأس أو طواقى أبنائهن لتكون سحراً ضد العين الحسودة .

– صاح بيومى قائلاً :

إنه حقاً الشهر الذى نطرد فيه العين الحسودة ! أنا واثق أن بائع الملح الأحمر العجوز حضر إلى هذا الصباح وأن زوجتى اشترت منه بعشرة

قروش ! كما لو كان لدينا نقود يمكننا صرفها فى مثل هذه الحماقات !

– قال صعب : يا صديقى ، لابد وأن يكسب بائع الملح قوته مثله مثل باقى الناس .. وهو يمر بفترات بطالة أكثر منا فهو لايبيع بلسمه ضد العين الحسود سوى خلال العشرة أيام الأولى من السنة . بمناسبة العين الحسود، هاهى وصفة يمكنك إعطاؤها لزوجتك إذا كانت لا تعرفها . فهى غير متداولة، وعرفتها من زوجتى ، وهى كوديا كما سبق وقلت لك . عندما يحسد شخص بعينه ، نأخذ قطعة من حجر الشب ونضعها على الموقد قبل غروب الشمس . وبينما تحترق نقرأ بصوت عال الفاتحة والمعوذتين : سورة الفلق وسورة الناس ويتم هذا بسرعة لأنهم قصيرون وفى هذه الأثناء ، يتشكل الحجر فى النار على هيئة الرجل الحسود .. فنأخذها ونطحنها باللحم ونعطيها لكلب أسود .. فتطرد العين الشريرة . ونحصل على نتيجة مؤكدة إذا فعلنا هذا الموضوع يوم عاشوراء .

– قال جمعة سأُعلِّم حماتى هذه الوصفة حيث يمكنها فى المقابل أن تعاملنى معاملة حسنة لمدة ثلاثة أيام على الأقل لأنها من النساء اللاتى تهتم بهذا النوع من الوصفات . وهى تعرف جميع الأعمال وجميع الصلوات يمكنها تحويل الحظ وتغيير القدر . ومن عادتها كل عام صيام العشرة أيام من شهر محرم حتى تتطهر جيداً وتستعد ليوم عاشوراء . هل تعرفون ما تنتظره وما تتمناه ؟ زيارة بغلة العشر ! نعم إنها تزعم أن الشخص المقسوم له شىء ليلة عاشوراء ، يسمع جلجلة عند بابه فيجد بغلة تحمل على بردعتها جوالاً فيه رأس ميت ، لو لم تخف فإنها ترفع رأس الميت وتأخذ الجوال حيث يكون مليئا بقطع الذهب ! وبالطبع تأخذ هذه القطع ولو أرادت الحفاظ عليها حتى لا تتحول إلى زلط ، فلابد من عليها ملء الجوال بأى شىء آخر مثل الجرائد القديمة أو القش ثم تضعه مرة أخرى على البردعة وفوقها رأس

الميت وتعيد البغل .

– قال رشاد الترزى : هاهى زيارة قد تكون مناسبة لى خلال عشرة أيام.

– ورد صعب قائلا :

وأنا أيضا ! لكنها قصص خاصة بالجن ! فبغل العشر ما هو سوى جن ! ومن أجل استحضار الجن لابد من الرجوع إلى كوديا ، يمكنك أن تقول هذا الكلام إلى حماتك يا جمعة . فزوجتى كوديا كما تعرف وكذلك كانت والدتها وجدتها . وكنت أعرف جدتها ، كانت تدعى أم سكينة وكانت هى تعرف هذا الأمر ! يوماً ما روت لى قصة غريبة . لو أردتم معرفتها ربما تساعدكم على التغلب على القدر حتى تصبحوا أغنياء مثل أبو دهب نفسه لكنى أخبركم لايجب أن تخافوا !

– يا صعب لتقل دائما عندما يكون كيس النقود لابد من أن نتحلى بالشجاعة مثل الأسود .

– هل تعرفون قلعة الكبش حيث يُقام سوق الخراف خلف السيدة زينب والحوض المرصود ؟

– قال المعلم إبراهيم وهو يضحك بصوت عال إنه حى معروف ويوجد به المستشفى الذى يتردد عليه النساء العاهرات ولذلك يطلق على المكان اسم الحوض المرصود ؟

– قال صعب وهو يرفع كتفيه ليس لهذا السبب على الإطلاق ! عرفت أم سكينة من والدتها التى عرفت هى أيضا من والدتها حيث تتوارث كل من تعمل كوديا الأسرار من الأمهات إن فى الماضى كان هناك حوض كبير. وكان محفوراً فى حجر أكثر سواداً من الليل وأكثر صلابة من الصلب، عندما يمتلىء بالماء يمكن للحيوانات والناس أن يشربوا منه : وكان من خاصية مياهه شفاء

المرضى . لكن يجب توخى الحذر وعدم لمس الحجر فمن يلمسه تزداد آلامه وتصاحبه الكوارث، عندما سرقه بونابرت جلب له سوء الحظ ! فتم طرده من مصر ولم يفعل أى شئ بعد ذلك ناجحا ! أقول هذا لأثبت لكم أنه مكان مسكون بالأرواح وكل من تعمل كوديا تعرف هذا الأمر .

الشيخ عبدالله هو عجوز ضخم ، محنى الظهر ومشهور بعلمه وتدوى السلامات والتحيات فى أى مكان يجلس فيه رآه جاره الشيخ الشامى متوجها إلى القهوة ، فأسرع حتى يلحق به أفسح له الجميع مكانا على الرحب والسعة، لأن شكله يسر القلوب : وجهه العريض وعيناه الصغيرتان المكسورتان، وابتسامته الرنانة التى تدل على فرحة الحياة إن لم يجد وجبة لذيذة ، فالشيخ الشامى ليس من الرجال الذين يرفضون العصير أو القهوة أو النارجيلة أو حتى المناقشة .

– قال الشيخ عبدالله :

لابد من وجود عقاب فى شهر محرم .

– رد عيه الشيخ الشامى قائلا :

لابد من التسلية .

– إنه أحد الشهور الأربعة المقدسة ! التى يجب على المرء فيها أن يكرث أفكاره وأفعاله إلى الله وحتى الأعداء لابد وأن ينسوا شجارهم .

– إنه إذن شهر استبشار .

– إنه شهر الطهارة :

لابد من تجنب وسائل التسلية غير السليمة والخطايا والإكثار من الصيام.

– قال جمعة : كانت حماتى تصوم العشرة أيام الأوائل من شهر محرم .

– عادة كنا نكتفى بيوم عاشوراء .

– مثل اليهود ! إنهم يطلقون على هذا اليوم اسم «تشرى» أى اليوم العاشر !

– تعلمنا من الأحاديث أن الرسول ، فى بداية إقامته فى المدينة ، أوصى بصيام اليوم العاشر من الشهر .

– قال الشيخ عبدالله : صوم عاشوراء تقليد متبع وليس إجباراً أليس من المناسب أن نتذكر بخشوع استشهاد سيدنا الحسين حفيد الرسول على أيدى جنود خليفة دمشق فى يوم عاشوراء فى السنة الواحدة والستين بعد الهجرة فى كربلاء ؟

– صاح الشيخ الشامى قائلا : ها نحن نتذكره !

لا نقيم الحفلات أو الأفراح ولا نشترى الأثاث أو الملابس تكريماً لسيدنا الحسين ! ألا يجب علينا إقامة حداد رسمى لمدة عشرة أيام مثلما يكون الحال فى طهران أو فى بغداد ! لكن سيدنا الحسين فى الجنة !

يتنعم بأربعين حورية ! فهل يستدعى الأمر النحيب وشد الشعر عليه ؟

عبر صعب عن رأيه قائلا : هذه كلمات من ذهب ؟

يجب علينا الاحتفال بحفيد النبى بإقامة الحفلات والموسيقى ؟

– أضاف رشاد الترزى قائلا : وذلك بلبس الملابس الجديدة فى هذا اليوم.

– أبدى بيومى ملحوظة وقال : استشهد سيدنا الحسين فى معركة مع جنود الخليفة وتقاتل المسلم مع المسلم ، فهل يمكننا نحن أيها المؤمنون المساكين أن نأخذ جانب أحدهم ؟ نحن لسنا شيعة .

– قال الشيخ الشامى : معك حق يا صديقى .. أنا درست التاريخ وكان كل شىء يتعلق بالسياسة ! عندما جاء الخليفة المعز ليقيم فى القاهرة ، كان يدعى أنه من نسل النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق السيدة فاطمة

والإمام على وكان يكثر هو وعائلته من حفلات التكريم لجميع أفراد عائلة الرسول صلى الله عليه وسلم : سيدنا الحسين وسيدنا الحسن والسيدة زينب والإمام على الأصغر والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكينة وآخرين إن نساءكم تعرفن مقاماتهم أفضل منى! وقد أحضر رأس سيدنا الحسين إلى القاهرة جد المعز كما يدعى فى يوم عاشوراء ، كانوا يقيمون حفلات التأبين فى المساجد ، ويتشحون بالسواد ، ويقدمون وجبات بدون لحم وبدون حلوى ، وجبات جنائزية حقيقية ومنعوا الحفلات والموسيقى فى هذا اليوم ويقيم الشعب الذى يشبه قطيع الأغنام الحداد مثل رؤسائه فينتشر فى الشوارع وهو يتأوه ويعتقد أنه مجبر على أكل العدس المسلوق وعلى الصيام وتجنب أى ترفيه حتى وإن كان حفلة زواج .

– صاح صعب قائلا : خراف ، بل قل إنهم كانوا يشبهون القرود !

أكمل الشيخ الشامى قائلا : لكن السلطان صلاح الدين الأيوبى جاء من دمشق وغير ذلك.

– قال بيومى : مع كل هذا لا أعرف لماذا لايجب على الأزواج شراء الأثاث طيلة شهر محرم وليس فى يوم عاشوراء فقط .

– قال الشيخ عبدالله : إنها إرادة الله بلاشك وليس من الحكمة دائما محاولة معرفة سبب كل شىء .

– قال بيومى : يا الهى يوم عاشوراء لايمكن أن يكون يوماً حزيناً قد يكون معى مزيد من المال لأشترى أوزة وستعد زوجتى الطباخة الماهرة طبق الحبوب كعادتها كل عام حيث تجمع فيه القمح والأرز والعدس والنشا والسكر والبلح والتين والزبيب سأوصيها أن تعد كمية كبيرة وسأرسل لكم منها وعليها الفستق واللوز والبندق ، كم هو طبق لذيذ ؟

– أبدى الشيخ عبدالله ملحوظة قائلا : ربما تجدونه أفضل لو تناولتموه

فى الافطار بعد صيام اليوم كله .

– صاح الشيخ الشامى : أحقا ما تقول ياصديقى ؟ فبعد الجبن المالح ، يبدو العسل أكثر عذوبة لولا الحرمان ما استطعنا تقدير ملذات الحياة مرة واحدة يوم عيد نفس يوم العقاب ويوم حداد نفس اليوم المبارك يأتى يوم عاشوراء فى بداية كل عام ويهدينا صورة قدرنا .


رجب

تغيب الشمس خلف نخيل الجزيرة وتحل محلها نسمة تغطى المدينة كلها لماذا تلك الجموع فى الشوارع ؟ وهؤلاء البائعون على أعتاب محلاتهم ؟ لماذا كل هذه الأعين الناظرة إلى السماء وهذه الابتسامات وهذه الهتافات السعيدة انه قمر جيد والجميع يعرفه ، لكن قمر رجب ليس كباقى الأقمار إنه مبارك ويعد ميلاده حدثاً : أخيراً مر شهرا جمادى والآن سنعيش رجب.

كم نستعجل فتح نوافذ هذا المنزل على مصراعيها ! بعد وفاة الخالة أمينة منذ أكثر من عام كان أهل البيت يعيشون فى حالة حداد : يرتدون الملابس الداكنة ولايقيمون الحفلات وانما يقيمون جلسات حزينة تجعلك تبكى غصب عنك انتهى كل شىء بفضل الله فقد محى هذا الهلال الصغير الحزن أخرجت كل من جميلة وثريا من الدولاب بعض الثياب ذات الألوان الفاتحة ، وستدعوان غداً بعض الصديقات لم يعد مسموح بالحزن إننا فى شهر رجب.

هؤلاء الناس الذين يسيرون بسرعة فى الشارع حاملين الهدايا وهم يضحكون بمفردهم إنه الشباب الخاطب فمنذ شهرين كانوا يتركونهن يذقن لوعة الحب وهم يقولون : «اصبرن فلن نزوج خلال جمادى الأول ولا جمادى الآخر» الأمر الذى جعل الشباب محبطين ، كم أنهم مساكين! لكنهم سيعوضون كل ما فاتهم وسيحدث زواج فى كل بيت : إننا فى رجب.

تتنزه الست نفيسة ببطنها البارزة أمامها الأمر الذى يحسدها عليه جميع النساء .. ليس هناك شك أن لديها بركة .. لأن الله سيبارك طفلها هذا وسيتحقق له كل شىء .. يمكنها أن تحلم له بأفضل الأقدار لأنه سيولد فى شهر رجب .

لايكف محمد الهلالى حلاق الجمالية عن شحذ أدواته وعن عد وإعادة عد العلامات الغامضة المرسومة بالتباشير على باب محله : ألم يخطىء ؟ هل استطاع إحصاء جميع صبيان الحى الذى يتناسب سنهم وإجراء الطهور ؟ سيمتلىء محله قريباً بالصرخات التى سنسمعها من على بعد لأن الطبول ستصدر ضجة جميلة وستتوالى عربات الأطفال فى الشوارع : إننا فى

رجب .

قال سليم باشا وهو ينظر إلى رسومات الفيلا الجميلة التى يريد بنائها فى الزمالك : أخيراً سنتمكن من فتح الورشة وبدء الأعمال .. إننا فى رجب.

يعتقد بدر أفندى وهو يعد العشرة جنيهات التى ادخرها قطعة قطعة خلال العام أنه سيتمكن الآن من شراء غرفة المعيشة التى طالما حلمت بها زوجته بما أنه شهر رجب .

صاح شيخ الجامع قائلاً : الحمد لله أننا فى رجب ! ستتوافد العطايا !

قال الشيخ: ها هو شهر رجب الذى تقام فيه الحفلات والولائم ويصرف فيه الكثير من الأموال ! قال الشحاذ الذى يجلس فى آخر الشارع والذى أوشك على الموت من الجوع خلال آخر شهرين ، سَيُدِر الله النفقات تغنت المغنيات والراقصات قائلات : ها نحن فى رجب وسيأتى شعبان من بعده إنه التزام مؤكد كل ليلة حيث يمكننا تسديد ديوننا واستعادة أساورنا الذهبية المرهونة وتجديد ثيابنا وادخار بعض النقود لشهر رمضان وباقى السنة .

قال النجار : ها هو شهر رجب ! قضيت ثلاثة أشهر أنشر وأصقل وأدق مسامير دون أن أبيع كرسى كاد كل هذا الأثاث أن يخنقنى من حسن الحظ ، أن الشباب سيتزوجون الآن وسيجهزون أثاثهم ، وسيفرغ محلى بسرعة بينما ستمتلئ خزنتى وابتهج البقال وقال ها هو رجب وهو يتأمل صفائح السمن التى تملأ مخزنه .. لقد أحسنت عندما تنبأت بتكديس البضاعة .. فالناس تأكل كثيراً أثناء شهر رجب ! وسترتفع الأسعار قال الصائغ :

ها هو شهر رجب ، شهر الهدايا .. سيكتظ بالزبائن غداً والأيام القادمة.

قال أبولبدة لأكبر خروف عنده : ها هو شهر رجب سأقودك منذ الغد إلى السوق وبعد غد ستتصدر وليمة أحد التجار الأغنياء الذى يزوج ابنته وقالت أم بركة وهى تحسب الأيام ، سأبيع الأوز والبط خلال سبعة وعشرين يوماً بثمن غال .. لأن كل الناس تفضل وضعهما على المائدة يوم ٢٧ رجب وهى الليلة التى انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى القدس .

قال على شعبان : وهو يتنهد :

ها هو أخيراً شهر رجب .. منذ شهرين ، كان يرتعد خوفاً على حياته وكان لايخرج أبداً من منزله .. وعند حلول الليل : لم يقسم محمود البلاطة بموته لأنه أوشى بأخيه سارق البطيخ لدى الخفير ... وهذا المساء ، خرج على بكل هدوء مثل الجميع وأخذ يتسكع دون خوف فى شوارع القرية وكان القمر يتلألأ بأعلى.

يمكننا أن نثق أن الموتى ، فى الجنة ، ليسوا آخر من لمح الهلال الصغير وأنهم أسرعوا للعودة إلى مقابرهم لأنهم يعرفون أن عائلاتهم ستزورهم وستحتفل بهم : فشهر رجب هو شهر الذكرى فمنذ الليلة الأولى ، يقوم الكثير من الناس بجولة فى المقابر لكن الأيام المخصصة لزيارة المقابر هى أيام الخميس حيث يسرع الناس إليها فى فترة بعد الظهر : سيراً على الأقدام أو فى عربات الكارو أو فى العربيات أو فى التاكسيات أو فى سيارة المعلم ويأخذون معهم بعض أوانى المطبخ والمراتب وسلال المؤن فى الشوارع التى تفصل بين المقابر ، يلاحق حاملو المياه وبائعو الخبز والشراب والفول والفاكهة الزوار :

إنه موسم رجب بالنسبة لهم أيضا !

صاح متولى حارس مقابر عائلة عبدالعزيز قائلا : الحمد لله أننا فى شهر رجب ! بينما كانت تنزل من السيارات الست تفيدة الأرملة وزوجة ابنها وبناتها الاثنتين وأخواتها وأبنائها الأربعة وثلاثة من نسايبها وقد أراهم بكل فخر الغرف النظيفة والحديقة ذات الممرات المكنوسة جيداً والحالة الجيدة للأشجار وخاصة الصبار الذى يجذب مباركة السماء يدخل الجميع الضريح الذى يضم أربع مقابر :

واحدة للرجال وتعلوها عمامة والثانية للنساء ويتوجها حلية نسائية والاثنان الآخران للخدم الذين يموتون أثناء خدمة العائلة . أول مقبرتين مصنوعتان من الرخام وعليهما كتابة بالحروف الذهبية .

يحضر الشيخان اللذان يتم استدعاؤهما كل عام بينما يجد الجميع مكانه بين المقابر وبينما يتصاعد من الموقد دخان البخور يقرأ الشيخان معا سورة الرحمن .

يستمع الجميع بتأمل إلى قصة خلق العالم .. لا تتحرك مشاعر أى أحد عند ذكر ألسنة النار الخاصة بالجن ومياهه المغلية .. لايفكر أحد ولو للحظة أنه لايستطيع أحد من هؤلاء المتوفين أن يتواجد هناك حتى لايخاطر بجذبه من شعره أو من قدميه وتضيء كل الوجوه عندما يتم وصف روعة الجنة والفرحة سيذوق منها المؤمنون .. يالها من أشجار جميلة يا إلهى !

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن دونهما جنتان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، مدهامتان – فبأى ألاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما فاكهة ونخل ورمان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهن خيرات حسان، فبأى ألاء ربكما تكذبان، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام﴾ [١].

كيف يمكن للست تفيدة أن تحزن بينما يسعد زوجها ؟ كما قالت لها زوجة ابنها لابد وأن ينعم عبدالعزيز وهو يرى عائلته فى رخاء .. زوجته وأولاده وأصدقاءه مجتمعين من أجل إحدى الولائم التى كان يحبها .. لأنه كان يحب الحياة .

بعد انتهاء الدعاء يجتمع الجميع فى الغرفة الكبيرة التى يتوافد عليها الأصدقاء ويجلسون بدون أى تكليف، يقدم الخدم الوجبات التى أحضروها والتى قضت النساء ثلاثة أيام فى إعدادها إنه لشرف للجميع وتأتى الشيوخ

١ – من آية ٦٣ إلى آية ٧٨ سورة الرحمن .

فى المقدمة ! فالجميع يتسامر فى شهر رجب ! يا له من نقاش ويالها من كلمات :

– هل لديهم خرشوف فى الجنة ؟

– هل لديهم تفاح ؟ أو موز ؟

– القرآن لم يذكر سوى البلح والرمان .

– ألم تغارى من الحور يا ست تفيدة ؟

– أبداً ! كان زوجى يغدق علىّ وهو حى كان هناك ثلاث زنجيات فى خدمته وكان لايسمح لى بالقيام بأى عمل : وكان لايتركنى أفعل معهن أى شىء ! وإنما كان يوافق فقط على أن أطرز له الملابس فقد كان يزعم أن لا يوجد أى شخص يطرز مثلى يارب تسعده عزارى الجنة كما أسعدنى !

تلقى بقليل من البخور على الموقد ثم تنادى على الخادمة وتأمرها بحمل بواقى الطعام إلى الفقراء .

– قالت سأعد السلال نهضت زوجة ابنها لتساعدها لكنها رفضت :

يجب علىّ أن أفعل كل شىء وذلك من أجل إسعاد روح زوجى .

وحبست نفسها فى المطبخ مع الخادمة وجمعت ليس بواقى الطعام فقط وإنما العديد من الأطباق التى لم يتم تقديمها بعد .. عملت بنشاط وقضمت ورك فرخة وقطعة كفتة وواحدة من محشى ورق العنب وقطعتين أو ثلاثاً من الجاتوه .. فى الحقيقة ، أرادت أن تبقى بمفردها لهذا السبب فأثناء تناول الوجبات مع مجموعة ، من الذوق أن تتصنع فقدان الشهية .

ملأت ست سلال كبيرة غداً صباحاً فى الفجر ، سيتم توزيع كل هذا على الفقراء كل من سيأتى سيكون من كبار السن لأن المرحوم كان رجلا كبيراً والناس التى تأتى كل عام لا تتغير – وستشعر روح عبدالعزيز بالرضا الذى يكنه الناس لتلك العطايا أضعافا مضاعفة وهى فى الجنة .

الليل ساكن يخرج الناس فى جماعات إلى الحدائق ثم إلى الحارات الموجودة بجانب المقابر تخترق النوافذ المضيئة ظلام المقابر الدامس ويسمع المارون أصواتا وتلاوة القرآن لايفكر أحد فى النوم هذا جميل ، فبعيداً عن ضوضاء المنزل إنهم يستمتعون بهذه الليلة الرائعة الليلة التى يقضونها بين الموتى الأصدقاء تحت النجوم والقمر المبارك لشهر رجب .

ليلة الإسراء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) .

صدق الله العظيم

في كل شارع من شوارع القاهرة ، وفى كل منزل وكل محل وكل قهوة تملك مذياعاً تدوى الآية الكريمة من القرآن والذى يتم نقله من مسجد الرفاعي هذا المساء بعد صلاة العشاء ومثله مثل الكثير من الرجال الورعين المرتبطين بالتقاليد ، يكره المعلم منصور سماع كلام الله خارجا من صندوق ومن أجل الاحتفال بمناسبة ٢٧ رجب ، أحضر اثنين من أفضل شيوخ مصر الذين سيسحرونه فى المساء هو وضيوفه بتلاوة آيات الذكر الحكيم .

وسيقيم المعلم مصنور هذا الاحتفال فى قصره الجديد فى الدرب الأحمر وهو لايبعد كثيراً عن جامع السيدة فاطمة النبوية ، حفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم، يتم تكريم السيدة فاطمة فى حيها بالاحتفال بالإسراء، هذا الحدث الكبير فى حياة جدها المبارك ، كما يتم الاحتفال بليلة النصف من شعبان حول مسجد السيدة زينب حفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً، كما يتم الاحتفال بالمولد النبوى بالقرب من جامع حفيده سيدنا الحسين وبذلك يكون لكل حى احتفاله ويحتفل حى الدرب الأحمر بـ ٢٧ رجب حيث يتوافد عليه المؤمنون من بعيد وهو يشتهر باجتماعاته الكبيرة ويتم الاحتفال بكل شيء مع سماع تلاوة القرآن ويمكن للاستقبالات أن تمتد خلال ثلاثة أو أربعة أيام أو حتى أسبوع ويجد المؤمنون الأثرياء الفرصة للتعبير عن تقواهم وكرمهم كما يجمع الشيوخ خلال تلك الاحتفالات أهم جزء فى دخلهم ويسعد طلاب الأزهر الجالسون وسط الضيوف بمقابلتهم لمستمعين منتبهين يقدرون معرفتهم العميقة للحديث .

---

١ – «سورة: الإسراء»

اشتهر منزل فريد باشا بحفلات البذخ ، وتساءل الناس إذا ما كان المالك الجديد ، المعلم منصور سيحافظ عى هذا التقليد فتدافعت الحشود فى البهو الكبير للقصر عند المائة أريكة التى تزين الأروقة وحول المائة منضدة المغطاة بالطعام وأخذت تمر أمام أبواب السبع مندرات المضاءة حيث تتم فيهم استضافة الضيوف الخصوصيين .. أخذت الناس تنظر وتسمع وتقدر وتراقب رب البيت الذى يحاول التواجد في كل مكان .

وقد ظهر المعلم منصور فى عظمة وارتسمت ابتسامة بشوشة على وجهه العريض وكان يرافقه كظله حارسان ضخمان يبدوان وكأنهما صبيانه وعندما يتوقف المعلم يرفع أحدهما كفى يديه العريضتين وهو يقول بصوت قوى :

– ليحفظ لنا الله المعلم الكريم : لقد ذبح جملا وثورين بمناسبة هذا الاحتفال .

ويضيف الرجل الثانى :

– هو الرجل الأكثر كرما فى القاهرة إنه يتبرع بكميات من اللحم أكثر من التى يبيعها ويهدى أى سيدة فقيرة تمر على باب محله رأس عجل كاملاً بالزور والأذن يرتدى المعلم منصور جلبابا جميلاً من الحرير الأبيض من ينظر إليها عن قرب يلاحظ وجود بقع دم صغيرة جداً على الصدر إنها لخير دليل على مهنة شيخ الجزارين والدليل على مهارة الجزار الذى يستطيع ذبح بقرة دون أن يصيب ملابسه بالكثير من البقع فالمعلم منصور هو ملك الكرشة ولحمة رأس البتلو .

يحييه جميع الضيوف باحترام ويتبادل الكثير من الناس الضحكات المسموعة خلف ظهره ودائما ما ..

يوجد رجل عجوز يقول :

– المعلم منصور ! لقد رأيته يمر فى هذا البهو حافى القدمين واضعا

قطعة لحم على كتفه عندما كان صبى جزار وكان مكانه فى هذا الوقت فى المطابخ .

– كان محظوظاً ! لأنه ولد فى ليلة القدر !

– قلت الحظ ؟ إن الحظ هو أن نجد عجلاً مرصعاً بالنجوم !

– عجل مرصع بالنجوم ؟

– إنه عجل صغير باعه له يوما ما فلاح محتاج مقابل أشياء قليلة جدا على باب المذبح ، وقد وضع فيه كل مدخراته اصطحب العجل عند والدته التى كانت تسكن «محلة السوق» فى المنوفية وكانت سيدة فطنة للغاية وكانوا يطلقون عليها اسم «بركات» وقد رأت على الفور مالم يره الفلاح أو منصور .. رأت النجمة البيضاء على جبين العجل وأخذت تسمنه وترعاه .. وعندما كبر العجل اتصل منصور وفقا لنصائح والدته بكل من تعمل «كوديا» ليخبرها أن عنده عجلا يحمل علامة حيث دائما ما يتم البحث عن هذه النوعية عند إقامة زار .

– ما السبب فى ذلك يا عمى ؟ ما الذى يميز العجل الذى يحمل نجمة عن باقى العجول ؟

– لايمكننى أن أفصح لك هنا عن جميع أسرار الزارات .. إن دم العجل الذى تميزه علامة له القدرة على تهدئة الأرواح القوية التى يصعب استحضارها لذلك تلبى لهم «الكوديا» جميع مطالبهم .. ولهذا السبب تشاجر الجميع من أجل العجل وجمع منصور سعره العادى عشر مرات وكانت هذه هى بداية تكوين ثروته .. جلب له عجل الحظ واستمر فى تجارة العجول فكان يشترى العجول من فلاحى المنوفية ثم يأتى لبيعها إلى جزارى المدينة ثم اندلعت الحرب بين الإنجليز والأتراك وارتفعت أسعار اللحوم وعلا نجم منصور فى العمل وعاش فى سعة وامتدت تجارته حتى السودان وها هو قد أصبح ثريا لشهرته بالنشاط والأمانة ، ازدهرت تجارته وانتشر موظفوه وسماسرته فى كل مكان بالبلد .

زاد منصور إلى نشاطاته تجارة رؤوس العجول والكوارع والكرشة أتعرفون .. أنها من أكثر أنواع التجارة المدرة للربح .

أخذ منصور يتوسع فيها فيجمع من المذابح كل رؤوس العجول وكل الكرشة ويبيعها لحوالى مائة محل ، غزا جميع أحياء المدينة .

كما كان يمون الباعة الجائلين في الشوارع الذين ينتقلون من باب إلى باب حاملين صوانيهم التى تزينها رؤوس العجول وكان المعلم منصور لايعرف ماذا يفعل بالنقود التى يكسبها ، فاشترى قصر فريد باشا .

– مسكين فريد باشا ! آه لو علم أن الذى سيسكن قصره صبى جزار .

– نعم ، إنه قصر نقيب البائعين وكان يتم فيه استقبال كبار الشخصيات فى القاهرة !

– كان منصور فخوراً به . فقد وجد الأثاث التاريخى فى المندرة الكبيرة التى كان يعقد بها الاستقبالات على الحال الذى تركه عليه .

وكان يصطحب أصدقاءه الجزارين إلى المنزل حتى يتأملوا كرسى الباشا أو يلمسوه بأصابعهم . وكان يجلس عليه أمامهم فخورا ومزهوا كما لو كان جالسا على عرش الملك.

– قال عجوز قصير يرتدى بالطو أسود طويلاً رثاً ومرقعاً : إن القصور القديمة قد تهدمت وقد تم تسليمها إلى الهدامين بعد وفاة أصحابها إلى أن تملكها أثرياء مثل منصور .. حتى يرضى غروره.

– الصراحة أن مراد بك الابن الأكبر للباشا كان يخجل من عرض المنزل للبيع لكن الأقارب كانوا أكثر طمعا.

– قيل إن المعلم منصور اشتراه فى اللحظة التى أفرغ فيها على الأرض كيسا مليئا بالنقود، كيس ورق من الذى يضع فيه اللحم .

– رد العجوز القصير : يجب ألا نصدق كل ما يقال . من المؤكد أنه دفع فيه ثمنا معقولا ولم يبخل، ويعتقد الآن أنه أصبح باشا .

– فى الواقع ، إنه يحافظ على تقاليد المنزل . انظروا إلى هذا الحشد من

الناس، إنه يضم عددا كبيرا من الناس، أكثر من الذين حضروا من قبل .

– تسرع حشود الناس بالحضور عندما يقدم الطعام !

– مؤكد ! فمن الأحمق الذى لا يحضر هذا الاحتفال ؟

يتقابل الأصدقاء، ويلتقى بعض الناس الذين يسكنون بعيدا، ولا يأتون إلى المنطقة إلا فى مثل هذا اليوم، ويتلو بعض الشيوخ ذوو الصوت الجميل القرآن الكريم ويقص العلماء قصة الإسراء والمعراج . يستمر المعلم منصور فى الاحتفال بذكرى ليلة ٢٧ رجب ليباركه الله !

– لا أريد أن أقلل من شأن منصور . لكن هل يتخيل أن الناس لا تدرك الفرق بين رجل من عائلة كبيرة وبين صبى جزار قديم ؟

لنتجول فى المندرة ! فيما مضى كنا نجد بشوات وبكوات وعلماء الأزهر وضباط ولواءات تزين السيوف أحزمتهم، أما اليوم فلا نجد سوى تجار المواشى تسترخى فى المقاعد .

– ولم لا ؟ أليسوا أثرياء وقادرين ؟ لأنهم كونوا ثرواتهم مثلما كونها المعلم منصور، فهل هم أقل قدرا من ضيوف الباشا ؟

قال العجوز القصير : لتسألوا الشحاذين عن رأيهم .

فإنهم يأتون كل عام على الرغم من أن عددهم هذا العام أقل عن أيام الباشا . أعرف واحدا منهم يأتى من طنطا فى هذه المناسبة وهو بساق واحدة. فيما مضى، عندما كان أحد الضيوف الكبار يمر وسطهم ليعبر البوابة، كان يغدق عليهم المال الكثير . أما اليوم، فيعتقد كبار الجزارين أنهم خيرون عندما يوزعون بعض القروش. جاءنى بعد ظهر اليوم الشحاذ ذو الساق الواحدة الذى يأتى من طنطا، إنه يدعى «شحاته» وأنا أعرفه منذ عشرين عاما .

لا يأتى أبدا إلى القاهرة دون أن يزورنى .. لا يمكنكم أن تتخيلوا كم الحكايات الخيالية التى يرويها لى من أجل الحسنة التي أمنحها له . لا يوجد أحد مثل الشحاذين . وأنا أقصد الشحاذين الشرفاء الذين يعرفون

واجباتهم – فإنهم يطلعون على كل ما يحدث داخل البيوت التى يترددون عليها . لقد أخبرنى «شحاته» هذا الصباح رأيه فى تغير الزمن . فى الماضى، كان الشحاذون يجتمعون حول أبواب المطابخ ليلة ٢٧ رجب .

كانوا يتلذذون وهم يستنشقون الرائحة الجميلة الفائحة من الخراف والديوك الرومى التى تشوى والزبد الذى يسيح فى الأوانى. وكانت تلك الروائح الجميلة تختلط بروائح الفانيليا وماء الورد . كما كانوا يستمعون وهم مسرورين إلى أصوات الصيجان عليها العجائن والهون الذى يطحن المكسرات والمفارم التى تفرم اللحم والمضارب التى تضرب البيض فى الطواجن . كانت الحياة تدب فى كل مكان ! وكان هناك عرض مستمر لباعة الطيور الذين يحملون أقفاصهم فوق رؤوسهم ، كما كان هناك عمال الطاحونة الذين ينحنون تحت أجولة الدقيق والباعة الذين يجرون العربات المحملة ببرطمانات المربى وعلب السكر والحلوى وأجولة القرفة واللوز، والبندق ، وعين الجمل، وكان باعة الفاكهة يحملون فاكهة الموسم: برتقالا وموزا وخوخا ومشمشا وعنبا وفراولة ومانجو وبلحا وتينا. هذا دون الحديث عن العربات المحملة بالشمام والبطيخ. وكان الباعة يتركون كل ما يقع منهم وهم يحملون بضائعهم للفقراء. وقال لى «شحاتة» إنهم تقاسموا يوما ما صندوق راحة الحلقوم. وكان أول مرة فى حياته يأكل منه . يا لها من ذكريات !!

– كان هناك تقليد آخر : لا يحتفظ أحد ببقايا الطعام لليوم التالى وإنما كان يتم توزيعها على الفقراء وفى منتصف الليل بعد انتهاء الحفل ، يتجمع الشحاذون أمام أبواب المطابخ بأوانيهم وقصعاتهم، كل واحد وحظه، إما سعيدا أو سيئا : فكان هناك من يأخذ إما قطعة لحم أو عنقود عنب أو نصف برطمان مربى . ذات يوم وجد شحاته آنيته مليئة بكريمة الفانيليا ! تتم عملية التوزيع نفسها كل ليلة .

كانت هذه الوليمة تستمر أسبوعا كاملا .

قال لى «شحاته» : هكذا أفهم الاستخدام الصحيح للثروات.

إن الناس توشك أن تقبل قدم الثرى . لكن المعلم منصور بخيل على الرغم من تظاهره بالكرم. كل شئ يدخل عنده يحسب ويوزن . ولو وقعت حبة عنب يتم التقاطها ووضعها فى سلة .

وأنا واثق أن بقايا هذا الطعام سيتناوله أهل البيت فى اليوم التالى واليوم الذى يليه. كما أكد لى «شحاته» الذى كان موجودا ليلة أمس عند وصول الموردين أن البضاعة كانت سيئة . فقد أحضر منصور رؤوس عجول وكرشة من محلاته، كما أن صرخات الأوز التى سمعها الناس فى الحى أعطت انطباعا أنه ذبح أكثر من عشر. وكان الخدم قد تلقوا الأوامر بان يجعلوا هذا الأوز يتألم طويلا، حتى يصرخ فيقول الناس : إن منصور هذا كريم ! أنفق فى هذا الاحتفال الكثير .

– لكن شحاته هذا يبالغ ولا يقول الحقيقة .

– ألم تروا المناضد المتراصة فى الفناء ؟ هل وجدتم عليها فخذ أوزة ؟ فى المقابل ، يمكنكم أن تأكلوا لحمة رأس حتى تشبعوا .

– إن المعلم يعلن عن بضاعته !

– لم يكلفه الاحتفال كثيرا ! فعلى الرغم من ثرائه ظل صبى جزار يقدر قيمة القرش الواحد . فضلا عن ذلك، يبدو أن والدته ، العجوز البخيلة «بركات» هى التى تتحكم فى جميع المصروفات ومنها مصروفات هذا الاحتفال.

– ماذا تريدون منها ؟ لقد سكنت قصر الباشا لكنها احتفظت بعاداتها فى «محلة سوق» . فهى لم تركب أبدا سيارة ابنها أو أى عربة خيل . تزعم أنها قد تختنق . ولم يرها أحد تتجول إلا فى العربة التى يجرها الحمار وهى جالسة القرفصاء على مسطحها وتجلس خلفها خادمتها وهما فى ملاءتهما اللف .

هكذا كانت تسير فى شوارع القاهرة وحتى فى شارع فؤاد حيث كانت

تتنفس على راحتها وتمتع عينيها بمنظر الشارع، وكانت تستمتع بكل ما تراه وهى تجمع الحكايات حتى ترويها لجيرانها .. كما كانت ترجع منتصرة إلى الدرب الأحمر سعيدة برؤية الناس التى تطل برؤوسها من أبوابها حتى تشاهدها وهى تمر .

خلال عدة أشهر ، أصبحت «بركات» الشخصية الأكثر شعبية فى الحى . والجميع يردد حكاياتها فى كل مكان ، فمثلا الكلام الذى تقوله عن زوجة ابنها ! أحيانا ما كانت تلومها على ارتداء حذاء بكعب عال وملابس يحيكها الخياطون الأوروبيون، وأحيانا ما تسخر منها لأنها تحجز نفسها خلف المشربية ولا تخرج إلا وهى محجبة وفى سيارة مغلقة كما لو أنها ليست فتاة من الشعب معتادة على الظهور فى الشوارع سافرة الوجه .

– أتعرفون كيف كان رد فعل «بركات» عندما زارت هذا القصر للمرة الأولى ؟ عندما رأت الفناء الواسع فارغا .

سألت : فيم يفيد هذا الفناء ؟

– قالوا لها : لا شىء .

فردت : لا شئ ؟ لو تركنى ابنى أفعل ما أريد لوضعت فيه مائة عجل لاسمنهم !

– لابد وأن تكون راضية هذا المساء، فالفناء غير فارغ !

كما أنها رأت رؤوس العجول على الموائد .

لم يبق منها سوى العظام، فقد لاقت رؤوس عجول المعلم منصور استحسانا .. عندما لا يوجد شواء يأكل الناس الكرشة .

أترون الشرفة المحاطة بالمشربيات الموجودة فوق دكة الفقهاء ؟ تقف فيها «بركات»، زوجة ابنها وجميع النساء . فقد قالت بركات للجميع إنها ستسعد بالاستماع إلى القصة الحقيقية للإسراء والمعراج . يبدو أنه لم يستطع أحد فى «محلة سوق» أن يرويها لها بشكل مناسب .

ستكون راضية حالا، فها هو أحد العلماء يجلس بجوار الشيوخ . إنه

ليس عالما أو على الأقل لم يصبح عالما بعد . إنه على بن الصاوى الإسكافى . لازال طالبا فى الأزهر، ومنذ أن التحق به لابد وأن يكون ازداد علما. ها هى الفرصة قد جاءته لإثبات علمه . إنه يعمل عملا صالحا فى نفس الوقت .

– طبعا ! انظروا إلى أكبر الشيوخ سنا، إنه إبراهيم المغربى .

لم أحضر أبدا ليلة السابع والعشرين من رجب فى هذا المنزل دون أن أجده .. أول مرة حضرت فيها كنت بصحبة والدى فى العام الذى مشى فيه الترام فى شارع محمد على . يبلغ إبراهيم المغربى على الأقل ٨٠ سنة، وهو ضرير لكن لا يقرأ شيخ القرآن مثله :

اسمعوا :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(١)

صدق الله العظيم

– يا له من صوت جميل ! ها هو الشيخ الصغير يبدأ الحديث عن الإسراء والمعراج . فى مثل هذا الوقت، فى مكة، أطلق عليه الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحزن . لأنه فقد فى فترة قصيرة عمه أبو طالب الذى رباه ورعاه كوالده، وزوجته خديجة التى كانت أول من آمن به . أحس بكراهية أهل مكة له فقد كان لا يظهر علنا إلا وتلقى وابلاً من الشتائم أو من الحجارة . وعندما كان يدعو الناس بكلام الله، كانوا يسخرون منه :

– هل أرسل الله رسولا من البشر ؟

– رد الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : لو كانت الأرض مسكونة بالملائكة، لأرسل الله رسولا من الملائكة !

– صاح أحد الجالسين قائلا : حقا، إنها إجابة صحيحة . لكن الكفار

---

١ – «سورة: «الإسراء آية ١»

رفضوا أن يصدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم دون حدوث معجزة . وقالوا له : لن نؤمن بك حتى تخرج لنا من الأرض عين ماء أو تبين لنا حديقة بها نخيل وأعناب تجرى فيها الجداول أو لتنزل علينا حجارة من السماء أو ترتفع أنت إلي السماء .

في هذه الليلة كان الرسول صلى الله عليه وسلم نائما على فراشه ، فى بيته الذى يقع بالقرب من الكعبة بين الصفا والمروة . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر حزينا ليلا وهو مفتوح العينين فى ضلال أهل مكة والمشاكل التى يواجهها من أجل تبليغ رسالته .

وفجأة شاهد إلى جواره كائنا يشع نوراً، إنه الملاك جبريل الأمين :

– يا إلهى ! ها هو الدليل على عدم اليأس ؛ كذلك أنا كان عندى خراف سودانية لم يقبل عليها أحد . وألهمنى الله فكرة أن أصطحبهم إلى سوق إمبابة حيث اعتقد الجميع هناك أنها خراف بلدية وبعتهم بأثمان معقولة . دائما ما يأتى الحظ إلى من يستحق. كان الملاك جبريل ومعه البراق .

– انتبه ! سيصنف لنا البراق .

– أتركوه يشرب قهوته أولا . ولا تكونوا عديمى الصبر.

إن الله لم يخلق الدنيا فى يوم واحد . كان للبراق .. الفرس السماوى . له جسم مثل جسم الحصان لونه رمادي فضي، ورأس رجل وذيل مثل ذيل الطاووس به كل الألوان وله جناحان كبيران لونهما أبيض .

– ألم يقل لكم الشيخ هذا الكلام العام الماضى؟ أليس هذا الشيخ أكثر علماً منه؟

ركب الرسول صلى الله عليه وسلم البراق الذى طار فى الهواء مثل البرق ومعه الملاك جبريل عبرا الصحارى والجبال .

وفى أقل من لحظة، وجد نفسه أمام المسجد الأقصى :

– قال بائع مواشى: آخر مرة ذهبت فيها إلى الخرطوم، ركبت الطائرة وقد تم كل شىء بسرعة، مجرد الوقت الذى أدركت فيه الرحلة. عادة كانت

تغلق أبواب المسجد بعناية، لكن فى هذه الليلة، ظلت بإرادة الله مفتوحة أمام رسوله.

وفى جدران المسجد من الخارج كانت توجد حلقات يربط بها الرسل مركباتهم، وقد ربط الرسول صلى الله عليه وسلم فيها البراق قبل دخوله إلى المسجد.

– لقد أحسن فعلاً حقاً. يوماً ما تركت فى فناء منزلى عجلتين غير مربوطتين فهربتا ولم أعثر عليهما أبداً.

– لو كنت مررت من القدس هذه الليلة، كنت قد كونت ثروتى! كنت سأبيعه إلى مالك خيول سباق!

كان سيدفع لى وزنه ذهباً. من كان سينافسه؟

داخل المسجد، التقى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنبياء الله جميعاً منهم سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى الذين وجدهم فى انتظاره فحيوه. وصلى إماماً بهم.

– يروقنى فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم خضوعه لله وورعه، فبعد أن أطاع الملاك جبريل دون سؤال، أخذ وقته وصلى بهدوء! لذلك نجح. هذا ما لا أستطيع شرحه لأبنائى.

فالشباب الحالى غير مطيع وطائش وغير صبور، إن الشيطان هو الذى يحركهم. يلهث أبنائى وراء الثروة، لكنهم لم يجدوها مثلى عندما كنت أترقبها.

وعندما أنهى الرسول صلى الله عليه وسلم صلاته، رأى شعاع نور ينزل ويضىء حجر يعقوب الموجود فى المسجد الأقصى.

وهو يقترب، لاحظ وجود سلم يرتفع حتى السماء. فأخذ يصعد بصحبة الملاك جبريل.

– قال لنا الشيخ فى العام الماضى إنهما أكملا طريقهما إلى السماء على البراق. كان هذا أفضل.

– إنك تجهل من أنت. إن هذا الأزهرى الشاب يعرف بالطبع آخر كلمة للعلم، فصدق ما يرويه.

– لا! لقد تخيلت البراق بأجنحته الكبيرة يرتفع إلى السماء. فضلاً عن ذلك، السلم ليس محتملاً. صعدت مرة حتى الدور السابع، فتعبت. أما السماء فقد تقع على ارتفاع ألف دور من الأرض.

وقد يتعب الرسول صلى الله عليه وسلم من الصعود على قدميه.

– قال جزار لابنه: أسمعت أيها البليد، صعد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يقرب من ألف دور، دون أن يشتكى وأنت رفضت أمس الأول أن تُوصل اللحم إلى زبون فى الدور الخامس! ألا تخجل من نفسك؟

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم والملاك جبريل إلى السماء الأولى طرق جبريل عليه السلام الباب.

– قال صوت: من الطارق؟

– جبريل.

– ومن بصحبتك؟

– محمد رسول الله.

– هل أرسل إليه.

– نعم.

– مرحباً به.

وبهذه الكلمات انفتح الباب فدخلا.

– قال جبريل: ها هو والدك آدم، اذهب لتحييه.

حيا الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا آدم الذى رد عليه التحية، ووضع يده بلطف على كتفه وقال له:

– أيها الابن المُكرم، إن عيون جميع أهل الجنة مرتكزة عليك. لقد سعدت برؤيتك. لتحقق أمانيك ياخاتم الأنبياء!

– فهمت لماذا أطلق الشيخ توا على الرسول صلى الله عليه وسلم اسم

خاتم الأنبياء وخاتم رسل الله.

– يمكنك أن تكون واثقاً أن الأزهرى لا يخطىء وقد سمع بالنص الحوار الذى دار بين جبريل وآدم. أنا أشارك فى احتفالات ٢٧ رجب منذ خمسين عاماً. دائماً ما أسمع نفس الكلام.

– قال الجزار لابنه: أرأيت أيها الوقح الصغير، الميزة فى أن تكون مؤدباً عندما تدخل بيتاً: يستقبلك الناس استقبالاً حافلاً ويكرمونك. زار الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبة سيدنا جبريل السماء الأولى. وأعجب كثيراً بما شاهده من معجزات .

– صاح رجل نوبى كبير ذو شارب أبيض: هذا ما يروق لى، أرى أن هناك من يحرس السماء. عندما كنت أحرس ليلاً وأنا فى الجيش كانوا يوصوننى بمراقبة الجواسيس وعندما كنت ألمح أحدهم يتجول بالقرب من المعسكر كنت أقطع رقبته بالسكين.

وتنتهى القصة.

يقول لجيرانه معلناً وهو يبتسم ابتسامة عريضة : أنا جزار.

انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا جبريل إلى السماء الثانية: وهى مسافة يمكن قطعها فى ٥٠٠ عام.

طرق سيدنا جبريل الباب.

– قال صوت : من الطارق؟

– جبريل.

ومن بصحبتك؟

– محمد رسول الله.

– هل أرسل إليه؟

– نعم.

– مرحباً به.

فانفتح الباب ودخلا.

قال النوبي العجوز: هذا ما كان يحدث في المعسكر، لو لم يقل الشخص كلمة السر، لا يدخل.

وفي السماء الثانية، التقى الرسول صلى الله عليه وسلم مرة أخرى بسيدنا عيسى وسيدنا يحيى، فحياهما، ردا عليه التحية قائلين: لتكن السعادة لأخينا حبيبنا، خاتم الأنبياء!

- قال الجزار لابنه: لتحفظ هذا الدرس جيداً يابني.

عيسى ويحيى اللذان يكبران محمداً قاما بتحيته أولاً وأطلقا عليه اسم خاتم الأنبياء. فهو آخر الأنبياء وأفضل الخلق عند الله. لتفهم إذاً أنك كنت مخطئاً عندما كنت تغار من أخيك الأصغر لأنه يلبس ملابس الأفنديات ويذهب إلى المدرسة بينما أنت تساعدني في المحل.

قال رجل مسن: عندما كنت أذهب إلى صديقي الشيخ سليم، كنت غالباً ما ألتقي باليهود والمسيحيين في متجر الحُلي الخاص به في الصاغة. وكان سليم يفسر لهم أصل الأسماء: وكان يشرح لهم أن موسى تعني المتحدث الرسمي، وعيسى روح الله ومحمد حبيب الله.

أكمل الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا جبريل رحلتهما ووصلا إلى السماء الثالثة. طرق سيدنا جبريل على الباب.

- من الطارق؟
- جبريل.
- ومن بصحبتك.
- محمد رسول الله.
- أرسل إليه.
- نعم.
- مرحباً به.

دخلا فقابلا النبي يوسف الذي حيا الرسول صلى الله عليه وسلم وجامله. صاح الرجال وهم يضحكون: يوسف أيضاً في الجنة؟

– قلت لى بالأمس إن النساء لن تدخل الجنة، لكن لو كان يوسف الجميل هناك، سينجحن فى الدخول من أجل رؤيته.

– أنا لم أفهم أبداً لماذا يقولون إن يوسف هو رسول النساء.

– برىء! ألم تعرف أن يوسف كان عبداً عند العزيز؟

وإنه كان أجمل من زليخة زوجة سيده، التى أرادت أن تخون زوجها معه لكنه رفض. لكى تثبت زليخة لباقى النساء فى المدينة اللاتى كُن يلمنها. كم كان من الصعب ألا يشعر أحد بسحر يوسف. دعتهن، وأعطت لكل واحدة منهنّ برتقالة وسكيناً. ثم أدخلت يوسف عليهن فبهرهن جماله ولم يعرفن ماذا يفعلن، وأخذن يقطعن أيديهن بالسكين.

– أنا أعرف كل هذا: فمن الذى لا يعرف سورة يوسف فى القرآن الكريم؟ لكن لم يذكر فيها أن يوسف هو رسول النساء.

– لا أحد يقول هذا الكلام.

لو كنت أنت دخلت فى حريم العزيز، مكان يوسف، ما كان للنساء أن يقطعن أيديهن. تعالت الضحكات. كانت السماء الثالثة مبنية من الأحجار الثمينة الجميلة. وقد شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ملاكاً بشكله الحقيقى، مابين عينه اليمنى والعين اليسرى تقطع المسافة سيراً فى ٧٠ ألف يوم. هو ملك الموت عزرائيل. يرأس عزرائيل ١٠٠ ألف مجموعة من الملائكة مهمته هى تسجيل أسماء الوفيات والمواليد فى سجل كبير.

– قال الحاج عبدالقادر، بقال الشارع الكبير: أنا عندى محاسب كل ما يفعله هو تسجيل البضاعة التى تدخل أو التى تخرج من المحل، وكل النقود التى أتلقاها أو التى أصرفها فى دفاتر.

إحك هذه القصة لمأمور الضرائب وليس لنا! لديك أيضاً محاسب. جوال أرز من هنا وصندوق سكر من هناك! وينتهى بك الحال بأن تثبت للمأمور أنك تعمل فى التجارة بدافع الخير.

تدخَّل العجوز القصير الذى يرتدى المعطف الأسود المرقع قائلاً: أنا

أمنعك من سب المحاسبين! فنحن نشكل أشرف مهنة. فلا يمكنني أن أغير نقطة في حساب ولو مقابل ذهب العالم كله.

فكثير من أفراد عائلتي يعملون محاسبين أباً عن جد. وكان جدي الكبير محاسب إبراهيم باشا الذي يجلس على الحصان بجانب الأزبكية. وكان جدي يعمل عند رستم باشا. وخلفت أنا والدي في هذا القصر. وعندما بلغت الأربعين كنت محاسب فريد باشا. وكان يمنحني عشرة جنيهات شهرياً.

كما كنت أحصل على إقامة وغذاء وأحصل على جميع المُؤن لعائلتي كما كان الباشا يشتري لأبنائي ملابس جديدة مرتين في العام، في العيد الصغير والعيد الكبير. وعندما كان يعود من الحج أو عندما كان يزوج أحد أبنائه كان يغدق علينا بالهدايا. وكانت ابنتي تعتبر مثل خادمة في المنزل ومع ذلك حصلت على شوار مثل الذي تحصل عليه الأميرات. أما ابني فقد تزوج من شركسية تبنتها الهانم وعاملتها مثل ابنتها. هكذا كان الأسياد فيما مضى!

أما الآن فقد أصبح الحي مليئاً بحديثي الثراء الذين كونوا ثرواتهم من إضافة الماء إلى الزيت أو دهن الخنزير إلى الزبد، والحجر المطحون إلى الدقيق. وعندما تم بيع هذا المنزل، قلتُ للمالك الجديد بعد أن كنت صديقاً لفريد باشا، لن أحط من قدري في خدمة بائع كرشة. هذا هو الحال الذي أصبحت عليه! أخذت النظرات الساخرة الغاضبة تلاحق الرجل القصير الذي يسير بكرامة.

– أنسانا هذا العجوز متابعة قصة الإسراء والمعراج. إلى أين وصل الرسول عليه الصلاة والسلام؟

– لابد أنه وصل إلى السماء الخامسة. قال الراوي إن كل شيء مصنوع من الذهب، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قابل النبي هارون أخا سيدنا موسى.

– سماء من الذهب! لو كان هناك يهودى فى الجنة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيجده هنا!

– ياشيخ أبوالذهب: لو كان كل شىء مصنوعاً من الذهب. لأصبح الصائغون أكثر سعادة. لا يابنى! لو أنه ليست هناك طريقة سوى الانحناء من أجل جمع الذهب فمن الذى سيحضر إلى محلاتنا؟

فى السماء الخامسة، شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ملاكاً جالساً على عرشه المتأجج والمحاط بدائرة من نار ويقع عند سفح جبل من معدن ساخن حتى الاحمرار. وكان يمسك برمح ملتهب وفى رأسه المغطاة بالنحاس الأحمر كانت عيناه تطق شراراً. هذا هو ملاك الانتقام.

– ليكفينا الله شر الانتقام! إنه عبارة عن نار يستحيل إطفاؤها. وإذا اعتقدنا أننا أخمدناها فى مكان، تشتعل من جديد فى مكان آخر!

أنا أصولى من قنا وقد رأيت هناك عائلات بأكملها أبيدت من أجل الانتقام لدم قد أهدر منذ قرن.

– كيف تجرؤ على مقارنة الصعايدة بالله! ينفذ ملاك الانتقام أوامر الله كما تم ذكر ذلك فى القرآن، والله رحيم. عندما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء السادسة التقى بسيدنا موسى. حيا سيدنا موسى الرسول صلى الله عليه وسلم وجامله.

ذكرت الأحاديث أن عدد المسلمين فى الجنة يفوق عدد اليهود. وأكد لى الشيخ أحمد أن اليهود الذين لم يعترفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.. لن يدخلوها.

وفى السماء السابعة، رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ملاكاً نصف جسمه من ثلج والنصف الآخر من نار وكان محاطاً بمجموعة من الملائكة يرددون: ياالله! أنت الذى وحد الثلج والنار وجمعت الناس على إقامة شريعتك.

– هل لابد أن يكون الناس أشراراً حتى يصعب توحيدهم أكثر من الثلج والنار!

إذا أراد الله أجبرهم على طاعته، لكنه أعطاهم الحرية. ومن فضَّلوا أن يدخلوا النار، تباً لهم فليذهبوا للجحيم!

– اسمعوا! لقد وصلنا إلى السماء السابعة!

لنكمل الرحلة، دخل الرسول صلى الله عليه وسلم حدائق الملذات. استقبله النبي إبراهيم وقدم له التحيات.

كان هناك حفل سماوي يملأ المكان ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم ملاكاً أكبر من العالم كله. كانت لديه ٧٠ ألف رأس وفي كل رأس ٧٠ ألف فم، وفي كل فم ٧٠ ألف لسان وكل لسان يتحدث ٧٠ ألف لغة. هذه الألسنة تذكر الله دون توقف.

ثم شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم شجرة سدرة المنتهى التي تمتد فروعها على مساحة أكبر من التي تصل الأرض بالسماء.

كل ورقة من أوراقها أعرض من أذن الفيل. أما عن ثمارها فواحدة منها تكفي لإشباع جميع مخلوقات الأرض يوماً كاملاً.

تقف على كل فرع من فروعها آلاف الطيور. وكال وردة تحمل حورية من الجنة. وتحت الشجرة عدد من الملائكة تلف حول نفسها يفوق عدد حبات الرمال في الصحراء. تتفرع أربعة أنهار تحت الشجرة. تجري مياه نقية في النهر الأول ولبن ذو مذاق لا يتغير في النهر الثاني وخمر هانئ للشاربين في النهر الثالث وعسل نقي مصفى في النهر الرابع. وحول الأنهار كان المختارون الذين يرتدون الحرائر والقماش المنسوج بخيوط الحرير والذهب يتسكعون في قصور مبنية من الذهب والأحجار الكريمة. يتنزهون تحت ظلال حيث تجري جداول الماء وتوجد الفاكهة في متناول أيديهم. وفتيان في خدمة المختارين يقدمون لهم كئوس المشروبات اللذيذة التي لا تُسكر وهناك في

أجنحة مغلقة تنتظرهم الزوجات الطاهرات اللاتى وهبهم الله إياهن. هن الحوريات ذوات العيون الواسعة التى تشبه اللؤلؤ المختبئ.

فى صمت مهيب، استمع الناس إلى وصف الجنة:

من الذي لا يعرفه؟ لكن كل منهم يستمع إليه دائماً بنفس النشوة.

– يارب اجعلنى من أهل الجنة.

– ألا يمكننى الحصول على حورية فى بيتى أو هل أستطيع قطف وردة وأضعها فى حديقتى؟

بعد قضاء فترة الملذات، توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البيت المعمور حيث تحج الأرواح السماوية. يأتى إليه كل يوم ٧٠ ألف ملك ليذكروا الله تعالى لا تدخل نفس الملائكة إلى المكان مرتين.

طاف الرسول صلى الله عليه وسلم سبع مرات ثم دخل المحراب ليصلى.

– صاح الحاج عبدالقادر: تماماً مثلما يحدث فى مكة وقد فعلت نفس الشىء العام الماضى.

– كل شىء صحيح! غير أنكم لم تدخلوا الكعبة. لهذا السبب لا يمكن للحج أن يتم فى أى مكان آخر فى العالم. وتوجد الكعبة تحت البيت المعمور.

بعد أن صلى الرسول صلى الله عليه وسلم قدم إليه ثلاثة كئوس أحدهم ملىء بالخمر، والثانى باللبن، والثالث بالعسل. فاختار كأس اللبن.

هنأه جبريل على اختياره، وقال له إن هذه نبوءة سعيدة لأمتك.

– أعتقد أننى لو كنت مكان الرسول صلى الله عليه وسلم لاخترت العسل! فالعسل لذيذ!

– على كل حال كان على حق فى عدم تناول الخمر. يوماً ما شربت بعضاً منه عن طريق الخطأ طبعاً! كان طعمه سيئاً جداً!

ليس هناك أسوأ من هذا الشراب! يقول القرآن الكريم إن هذا الشراب

يقدم لأهل الجنة وإنه سائغٌ للشاربين.

لكن الله حرمه على الناس لأنهم عندما يسكرون، يصبحون فى حالة أسوأ من الحيوانات!

كان على الرسول صلى الله عليه وسلم إكمال أكبر جزء فى رحلته ليقترب من عرش الله. وفى طرفة عين، نُقل إلى أعلى شجرة سدرة المنتهى.

تجاوز المحيطات دون حدود، عبر مساحات شاسعة مضيئة وأخرى مظلمة ظلاماً دامسا. مر عبر ملايين السحب. كان هناك رياح وظلال وهواء وماء ونار.

وفوق السُحب، قابل الرسول صلى الله عليه وسلم ٧٠ ألف مجموعة من الملائكة الساجدين الثابتين والصامتين تماماً.

فجأة، دخل فى نور الله، الذى يصعب تحمله فسكن مكانه. ومن هذا المكان نظر على بعد السماوات والأرض معاً، وجدهما فى الفراغ يصعب إدراكهما حيث كانا يشبهان الخردلة وسط الغيط. وقف الرسول صلى الله عليه وسلم أمام عرش إله العالمين: أصبح قاب قوسين أو أدنى كما ذُكر فى القرآن الكريم. يحتجب الله بسبعين حجابا. ولا أحد يستطيع أن يرى ذاته.

حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لم يره بعين البصر وإنما رآه بعين البصيرة «بقلبه».

– لهذا السبب من المحظور تمثيل الله فى صور فلا أحد يستطيع أن يصفه تعالى!

بالروح تأمل الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء يقف اللسان عاجزاً عن التعبير عنها، وهى تفوق الإدراك البشرى. أخذ قلبه يدق بقوة لدرجة أنه كاد ينقسم اثنين.

وضع إله العالمين يده على كتف الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى

صدره وشعر الرسول صلى الله عليه وسلم ببرودة تخترقه حتى النخاع.

شعر بشعور لا يوصف من الهدوء والسكينة.

- صرخ صوت مذهول وسط الصمت الرهيب والمؤثر للجماعة.

قائلاً: الله أكبر! الله أكبر!

أهدى الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم الصلاة خمسين مرة كل يوم، وأمره أن يبلغ الناس بذلك.

بعد أن أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم هدية الله وفى طريقه إلى الأرض.

فى السماء السادسة .. التقى بسيدنا موسى مرة ثانية وحدثه عن هدية الله.

عندما علم رسول بنى إسرائيل أن الله فرض خمسين صلاة يومياً، قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ارجع لربك وتوسل إليه أن يخفف هذا الأمر لأن أمتك لن تقدر على إقامتها.

- صاح المعلم منصور وهو يضحك: إن سيدنا موسى ذكى جداً ! إنه يعرف الناس جيداً!

أترى كيف نصح الرسول صلى الله عليه وسلم على تقليل الخمسين صلاة!

استدار الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد يرجو الله تعالى أن يخفف الصلوات. خففها الله له عشرة. قال سيدنا موسى هذا العدد كبير أيضاً.

صدقنى لقد قُمت بالتجربة قبلك وجربت كل شىء مع بنى إسرائيل. وواجهت صعوبة كبيرة حتى يُصلَوا مرتين يومياً. ارجع واطلب التخفيف. عاد الرسول صلى الله عليه وسلم يرجو ربه التخفيف مرة أخرى.

وبعد التخفيف عدة مرات، حدد الله خمس صلوات للرسول صلى الله

عليه وسلم لتصبح خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر.

– الحمد لله! فمن الذى كان سيصلى خمسين مرة يومياً ويجد الوقت لأداء عمله؟

لم يعد الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة إلى الأرض. فقد زار الجنة ورأى أصحاب اليمين، أى ضيوف الجنة، ورأى فى جهنم أصحاب اليسار وضيوف جمر النار. وبذلك استطاع أن يصف للناس كل شىء.

المعجزات التى سيتمتع بها المختارون والعقاب الذى يهدد المشركين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾(١)

صدق الله العظيم

شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم الهالكين فى النار، وسمع تأوهاتهم ونحيبهم. فقد كانوا يرتدون ملابس من نار وكانوا مربوطين. بسلاسل محمية لدرجة البياض. رقابهم محبوسة فى أطواق حديدية. والهواء المحيط بهم عبارة عن رياح ملتهبة وحتى الظل كان حاراً. وإذا ناموا ينامون على سرائر من نار، وتحت أغطية نار أيضاً. وإذا جاعوا يملئون بطونهم من شجرة الزقوم التى تشبه رءوس الشياطين وتغلى فى الأحشاء. وعندما يعطشون لا يجدون شراباً سوى الماء المغلى الذى يبلعونه مثل الجمال الظمآنة. يجف جلدهم ويتقع، لكن سرعان ما يتبدل بجلد آخر حتى يتألموا. يصرخون طلباً للنجدة فينزل على رءوسهم ماء يشبه النار فيحرق وجوههم. يتوسلون لمالك رئيس ملائكة جهنم

١ – «سورة: «الطور آية ١٤، ١٦».

«يامالك! لينقذنا ربك مما نحن فيه»!

لكن مالكاً يرد عليهم بعد فترة طويلة «ابقوا كما أنتم». لأنهم سيخلدون فى النار.

– صاح صوت نائم: ياالله: لا تجعلنى مع أهل النار.

الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. وأن محمد رسول الله. تردد أصوات أخرى كصدى لهذا الصوت.

– أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

– عندما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم الهالكين، رأى بينهم رجالاً ينتحبون دون توقف، بينما كانت النار التى تحرقهم من الداخل تخرج من افواههم. وكانوا هؤلاء هم الذين اختلسوا أموال المؤمنين.

كان على مقربة منهم، الذين أكلوا أموال اليتامى ظلماً. ويأكلون الآن بعض المواد التى تتحول فى أخشائهم إلى نار.

وكان هناك آخرون أجسامهم منتفخة وتعضهم التماسيح. هؤلاء هم الذين تعاملوا بالزبا.

– إنهم يستحقون ذلك! أنا أعرف بعضاً منهم ستلتهمهم التماسيح عليهم اللعنة!

هناك أكثر من واحد منهم فى هذا الفناء!

ستنزل عليهم لعنة الله.

كما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم نساء معلقات من أثدائهن لأنهنَّ ارتكبن الزنا وقدمن لأزواجهن أطفالاً غير شرعيين.

– الحمد لله! لا يمكننى الشك فى زوجتى، فأولادى جميعاً يتمتعون بماركة المصنع: لديهم جميعاً أنف ملوى مثلى.

– وماذا لو كانت زوجتك قد خانتك مع رجل لديه أنف ملوى مثلك؟

شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم رجالاً يأكلون بنهم أشياء نتنة

ومنفِّرة، بينمـا يوجـد تحت أعـينهم لحم سـمين شـهى، لكنه ليس فى متناولهم. هؤلاء هم الذين هجروا زوجاتهم وذهبوا إلى نسـاء غريبات عنهم.

– حقاً! هناك رجال يفضلون أكل الفول الموجود فى طبق جيرانهم بدلاً من تناول الحمام المشوى الموجود فى أطباقهم.

– أعرف رجلاً من بنى سويف كان كذلك: فقد تزوج ابنة عمه المرأة الأكثر....

– لتصمت وتروى لنا قصتك فيما بعد. واستمع إلى آخر الرحلة.

بعدما شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم كيف تتم معاقبة الخاطئين من الرجال عاد إلى القدس. ووجد البراق الذى عاد به إلى منزله فى مكة.

ياإلهى! يالها من معجزة! كانت هذه الرحلة أسرع من البرق.

ولم تكن تسمية سيدنا جبريل لحصانه البراق من قبل الصدفة. بينى وبينكم، قال لى جارى الشيخ إبراهيم، حسب رأيه، إن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى حلماً من وحى الله.

– أبداً! لقد أكد لى الشيخ أحمد والشيخ عبدالمجيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام بهذه الرحلة بالفعل بجسده،

– لنسأل العالم الأزهرى عن رأيه؟

– جعلتنا نفتح أفواهنا ياعلى! فأنت عالم مثل أساتذتك. من المؤكد، أنك ستصبح عالماً أنت الآخر. لكن أخبرنا، هل رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت حقيقة أم رؤيا؟

– إنها الاثنان معاً. هناك دلائل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم سافر بالفعل من مكة إلى القدس فى هذه الليلة. وعندما حكى المعجزة، كان هناك مستمعون يعرفون المسجد الأقصى ومن أجل

إحراجه. سألوه: كم عدد الأعمدة الموجودة به؟ وكم نافذة؟ وماذا رأى في مكان ما؟ وماذا رأى فى مكان آخر؟

فرد الرسول صلى الله عليه وسلم على الأسئلة دون تردد ودون خطأ، مع العلم أنه لم يذهب إلى هناك من قبل. ومن أجل التأكيد على كلامه.

قال له تاجر: لقد أرسلت قافلة إلى القدس، لابد أنك التقيت بها فى الطريق: فأين هى؟ ودله الرسول صلى الله عليه وسلم بكل وضوح، قال كل شىء بالأرقام كم رجلاً وكم حيواناً كما روى له حادثاً كان شاهداً عليه: هرب جمل ولم يعرفوا مكانه، وأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمكانه. كما تنبأ الرسول أيضاً بيوم وساعة وصول القافلة إلى مكة. تحققت النبوءة كما توقعها الرسول.

وأكد من كان فى القافلة كل أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

– هكذا اختلط الأمر على من يعتقدون أنفسهم أقوى من الرسول صلى الله عليه وسلم.

– كما أن من غير معقول أن نشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد زار الجنة والنار بالفعل: ألم يصفهما؟ كانت مهمته تقتضى أن يقابل بقية الأنبياء وأن يتلقى تعاليم الله تعالى.

لكن كيف استغرق هذا وقتاً قصيراً. اندهش المعلم منصور الذى اقترب، لكن عندما أريد أن أقوم بجولة لمحلاتى، يلزمنى ساعتين على الأقل حتى وإن كنت راكباً سيارة. وسأستغرق وقتاً طويلاً لو تأخرت فى الحديث مع الموظفين مثل سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى.

– ماذا يعنى الزمن لله سبحانه وتعالى؟ إن الله تعالى يُوقِف الزمن. ويلغى المسافات، فهو سبحانه لا يحتاج الوقت لعمل ما يريد.

اخـتـرع الإنسـان طائرات تنتـقل من القـاهرة إلى الـهند فى عـدة ساعات. أتعتقدون أن الله لم يخلق الأفضل من الإنسان؟

يمكننا القول أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأى رؤيا: ألم تكن رحلة مـفـاجـأة؟ ولم يكن لديه الوقت لرؤية التنقل. لكن هذا لا يمنع أنه رأى بنفسه ما وصفه، أستاذ الحديث الخاص بنا علمنا أن اليـوم تسـمح بعض الأجـهـزة برؤية مـا يـحـدث على بعـد آلاف الكيلو مترات، منها هذا الجهاز المسمى بالتليفزيون!

أكررها لكم، إذا كان هناك بعض الأشياء فى سلطة الإنسان، فكيف يصعب على الله تحقيقها بنفسه.

– هذا واضح! اعترف المعلم منصور أن الله قادر. كذلك أنا لم أكن فى الماضى سوى جزار صغير وها أنا اليوم مالك هذا القصر بفضل الله. ويوماً ما سأصبح باشا! إذا أراد الله. إن شاء الله.

– إن شاء الله.

– تمتم متذمراً فى نفسه قائلاً:

– ستكون هذه معجزة غريبة.

– سأل المعلم:

وهذا الجهاز الذى حدثتنا عنه ياعلى ماهو اسمه؟

– التليفزيون.

– التليفزيون! أقسم لكم ياأصدقائى أننى سأشترى تليفزيوناً، هل سيكلفنى هذا ألف جنيه؟ ماذا يعنى هذا المبلغ بالنسبة لى؟ سأدعوكم وأريكم مكة والمؤمنين في الحج. ستشعرون أنكم هناك. إن شاء الله!

– لماذا لا ترينا الجنة يامنصور؟

– سأريكم إياها إن شاء الله.

– بالحوريات؟

يمكنك أن تسخر منى يابائع الفول! أنا مؤمن! وأثق فى الله. أخضع لإرادته! إذا أراد أن يرينا الجنة سيفعل. وإذا لم يرد سأدعوه ليل نهار.

توجه الجميع ناحية باب الخروج، تأخر الوقت تلا الشيخ آخر سورة يوسف التى تعطى مؤشر الرحيل فى اجتماعات المؤمنين:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾[١]

صدق الله العظيم

---

١ - سورة «يوسف» الآية: ١١٠، ١١١»

ليلة نصف شعبان



مر الحاج مصطفى أمام محل الشواء، حيث تتراص قطع الكباب ثم ذهب إلى الحلوانى الذى أعطاه قطعة بقلاوة لذيذة وساخنة، حيث أخرجها من الفرن أمامه وكان يتبعه ولداه اللذان يحملان اللفائف، ثم دخل محل البقال حيث اختار بنفسه الزيتون، والسمك المملح الموجود فى البراميل. ثم ذهب إلى محل الألبان الذى تنبعث منه الروائح الطازجة والحمضية.

وفى الطريق، راح الحاج يمنح صدقة لكل شحاذ يقابله، والكفيف الذى يسير إلى جوار الحائط، يتحسسها، وللعاجز الذى يجلس القرفصاء فوق التراب، وللطفل الذى يرتدى ثياباً رثة ويمد يده الصغيرة نحوه.

أسرع الحاج مصطفى، يريد العودة إلى منزله لأداء صلاة المغرب التى أوشك أذانها على أن يرفع! كانت الحياة تدب فى الشارع أكثر من العادة، لأنها ليلة النصف من شعبان. وكانت وجوه الغالبية العظمى من المارة فيه مألوفة.. فهم جميعاً من أهل الحى، أهل «المبيضة»، هذا المكان المتميز فى القاهرة وشوارعه الضيقة البعيدة عن أصوات الترام ونفير السيارات، وعن الكباريهات والملاهى الليلية.

الناس فى هذا الشارع يسيرون على الأقدام، ويتكلمون عبر المشربيات، ويتمهلون للحديث فى المحلات المتواضعة.. وفى الليل يمكثون فى منازلهم للراحة من عناء اليوم.

أهل «المبيضة» لا يزالون يعيشون وفقاً للتقاليد التى أخفاها الشرق، فى المكان بعيداً عن الحياة العصرية التى التهمت كل شيء، مثل العندليب الذى يخبئ بيضه فى جذع الشجرة القديمة والذى لا يمكن للجوارح أن تصل إليه، كان وجودهم يتناغم مع صوت المؤذن الذى يرفع الصلوات الخمس ومع النتيجة الإسلامية المليئة طوال العام بمناسباتها وأعيادها.

لو كانت جميع الأيام متشابهة، ولدت من الليل والشمس فليس لهم جميعاً

الأهمية نفسها. فهناك أيام تمر دون أن يشعر بها أحد، وأيام أعياد لا يفكر أحد سوى في الاستمتاع بها.. كما أن هناك أياماً حزينة مرتبطة بذكريات خيبة أمل أو حداد أو حادث مؤسف.

وهناك أيضاً أيام يتقرب فيها الإنسان أكثر إلى الله تعالى حيث يقدر المؤمن فيها أن يُوجه تفكيره إلى سيد قدره. وليلة النصف من شعبان من هذه الأيام حيث تجعل أكثر الغافلين يهتمون فجأة بدينهم.

أسرع الحاج مصطفى خطواته، ورفع عينيه إلى السماء التى أصبحت أقل نوراً، فقد تعكس بعض السُحب الخفيفة الضوء الذهبى للشمس التى تغرب، وحيث سيسطع بعد قليل قمر النصف من شعبان. تابع عبده أصغر أبناء الحاج نظراته:

- هل شجرة سدرة عالية جداً جداً.

- رد عليه والده قائلاً:

نعم، فى السماء السابعة. يطلق عليها اسم سدرة المنتهى، ويقال إن الملائكة نفسها لا يحق لها أن تتجاوزها.

قال حسن الابن الأكبر الذى يتفاخر بأنه بلغ العاشرة.

- قال لنا الشيخ حافظ مدرس اللغة العربية هذا الصباح إنه لا يوجد بالجنة أشجار أو ورود حقيقية أو أى شىء مادى.

سأله الأب: هل يمكنك أن تشرح لى لماذا يطلق على الجنة اسم الشجرة؟

- صاح الصغير عبده قائلاً: شجرة سدرة هى شجرة حقيقية بها أوراق حقيقية. وقد وصفتها لنا جدتنا هذا الصباح، وقالت إن عدد أوراق الشجر هو عدد البشر الموجودين على الأرض، وكل إنسان وكل طفل صغير يمكنه أن يجد اسمه مكتوباً على إحدى ورقاتها. كما قالت لنا الجدة إن الشجرة ستهتز هذا المساء بعد غروب الشمس وستتساقط بعض الأوراق وكل من

تسقط الورقة المكتوب عليها اسمه، سوف يموت هذا العام. وفى القريب العاجل لو كانت الورقة صفراء وفيما بعد لو كانت خضراء.

أوصتنا الجدة اليوم أن نكون هادئين وأن نصلى بصدق حتى لا تتساقط الأوراق المكتوب عليها أسماؤنا.

قال حسن وهو يرفع كتفه: هذه خرافة!

رد الحاج قائلاً: ربما، لكنها تبين لنا حقيقة ما.. وهى أننا سواء كنا شباباً أو مسنين، أغنياء أم فقراء لابد أن ننتظر الموت فى كل لحظة، وأن نستعد لتلقى حساب الله. لا يمكننا أن نعرف قدرنا مقدماً ولا أن نتنبأ ما هى أوراق الشجرة التى ستسقطها الرياح. فالله وحده هو الذي يعلم قدر كل شخص.

قال حسن وعيناه تلمعان: أعرف وهذا مذكور فى سورة يس فى القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

صدق الله العظيم.

- صاح عبده قائلاً: يجب أن يكون كتاباً كبيراً.

شرح له الحاج قائلاً: يطلق عليه الناس اسم أم الكتب، لأنه أصل جميع الكتب المنزلة وأصل كل علم.

سأل عبده الذى خاف فجأة: أبى، لو كان مكتوب فى الكتاب أنى سأموت غداً، أليست هناك أى طريقة تمنع عنى الموت؟ حتى لو جلست هادئاً؟ وحتى لو صليت كثيراً؟

---

١ - «سورة: «يس» آية ١٢».

قال الأب: الله هو القادر على كل شيء وهو الذي يستطيع تنفيذ قَدَرِهْ دائماً. وقد ذكر في القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾(١)

صدق الله العظيم.

وقال حسن: فضلاً عن ذلك، لا يمكننا أن نتخيل أنه كتاب من ورق مثل الكتب التي تعرفها.. عندما نتحدث عن كتاب الله نقصد أن نقول: إن الله يملك العلم كله. ثم أسرع قائلاً وهو يرى والده يقطب حاجبيه:

- أنا.. أنا، أكرر فقط ما قاله لنا الشيخ حافظ. وعندما خرج الثلاثة من باب المنزل، دوى في الأنحاء صوت الأذان:

- الله أكبر! الله أكبر!

الله أكبر! الله أكبر!

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمد رسول الله

أشهد أن محمد رسول الله

حي على الصلاة! حي على الصلاة!

حي على الفلاح! حي على الفلاح!

الله أكبر! الله أكبر!

لا إله إلا الله.

كان عبدالعزيز الشيخ المسن موجوداً في الفناء.

توضأ الناس وأخذوا سجاجيد الصلاة لأداء صلاة المغرب. كل منهم يتحرك بورع شديد. بعد انتهاء الركعات الثلاث وإلقاء التسليمات بصوت

١ - «سورة: «الرعد آية ٣٩».

عالٍ: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يميناً ويساراً.

لم يُطبِّق الحاج مصطفى أو أبناؤه سجاجيدهم كالعادة وإنما ظلوا جالسين ينتظرون حيث كان الشيخ يقرأ سورة يس:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾(١)

صدق الله العظيم .

خرجت نساء العائلة من المطبخ، حيث كن منشغلات وجئن إلى الفناء ليستمعن إلى الشيخ.

وقد جاءت أم زكى والدة الحاج مصطفى، والست محفوظة أخته وزوجته الست لبيبة، والصغيرة هيفاء، والخادمتان وفاطمة وزينب.

قبل حلول الظلام وقف الجميع يُصلون، حيث راح الشيخ يؤمهم للصلاة. وبعد صلاة ركعتين، وقف الجميع، ورفعوا أياديهم وأعينهم نحو السماء وأخذوا يرددون كلمات الشيخ الخاصة بدعاء النصف من شعبان:

ياالله ياواحد! ياالله ياصمد! يارب العالمين!

ياإله الكرامات والخيرات
لتساند الضعفاء
وتنقذ المحتاجين
والذين يخشونك

ياالله، لو كنت مسجلا فى الكتاب ضمن من ليس لهم حظاً ارحمنى يارحمن.

لتمحو عنى ذنوبى وتخفف ما قدَّرته علىَّ ولو كنت مسجلاً مع السعداء

ثبتنى على الصراط المستقيم
صراط من أعطيت لهم خيراتك

الذين لا يشكلون جزءًا من غضبك ولا من الضالين. أستحلفك يا الله بالأمر العظيم الذى أنزلته ليلة النصف من شعبان عندما أنزلت كتابك على رسولك:

احفظنى من جميع الآلام.
التى أعرفها والتى لا أعرفها
والتى تعرفها أنت أفضل منى
أنت القوى وأنا الضعيف
أنت الله وأنا مخلوقك المتواضع
أنت السيد وأنا عبدك
أنت الوحيد الذى يمكنه أن يلطف بقدرى
ياسيد الكرامات والخيرات
ياالله ياواحد! ياالله ياصمد! يارب العالمين!

صمت الشيخ. وظل الحاج مصطفى لحظة أخرى فى الصلاة، ثم همس قائلاً: ياالله، بارك لى فى عائلتى.

امنحنى الحياة الطويلة حتى أربى أبنائى وأجعلهم مسلمين مؤمنين.

قالت الست لبيبة: ياالله، امنح زوجى الحياة الطويلة والرخاء، وزوجاً صالحاً لابنتى هيفاء ليسعدها.

حل الظلام التام. وعادت النساء إلى أعمالهن. واتجه الحاج مصطفى، وأبناؤه والشيخ إلى السلاملك لأداء صلاة العشاء.

جلس الشيخ العجوز على أريكة، جلسته المعتادة وثنى رجليه تحته، وبدأ يقرأ سورة البقرة بآياتها الـ٢٨٦ حيث إنها أطول سورة فى القرآن الكريم.

وفى الغرفة المجاورة، جلست عائلة الحاج حول الطبلية لتستمتع بالوجبة اللذيذة التى أعدتها بأيديهن الست لبيبه، وأم زكى الطباختان الماهرتان.

وكان صوت القرآن الكريم الذى يدخل من الباب المفتوح، يحلق فى الهواء الذى يتنفسه الناس ليختلط بروائح الوليمة ويمتزج بجلبة الأصوات.

أما الشيخ عبدالعزيز، فكان يتوقف لحظات حتى يتناول الأكل الذى يقدم له.

لم يكن صوته فى كامل لياقته. وهو يفخم الآيات الكريمة ويقرؤها بأسلوبه الرقيق الذى جعله مشهوراً، وما كاد العشاء ينتهى حتى امتلأ السلاملك بالجيران الذين لا يملكون أن يدفعوا للشيخ، لقد جاءوا يستمعون إلى القرآن عند الحاج مصطفى.

وأخذوا يسبحون فى صمت، وهم جالسون، أو يجلسون القرفصاء على المقاعد أو على السجاد، مرددين كلمة الله بإعجاب بعد كل مقطع منغم.

لحق الحاج مصطفى بهم بصحبة ولديه. بالنسبة للصغير عبده الذى

أتم عامه السابع، إنها المرة الأولى التى يجلس فيها مع الرجال. كان متأثراً وأخذ يلتصق بقفطان أبيه، ويتعلق فيه بيديه الاثنين.

راح الشيخ يكرر الآيات الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾(١)

صدق الله العظيم.

انحنى الحاج ناحية ابنه حسن، وطلب منه أن يذهب لإحضار بعض المرطبات، سرعان ما عاد الابن حاملاً صينية عليها أكواب الشربات الذى أعدته والدته فى المطبخ.

وانتهى من التقديم للجالسين عندما ناداه والده وطلب منه أن يستمع إلى ما يقرأ الشيخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾(٢)

صدق الله العظيم.

أشار الحاج للشيخ أن يتوقف لحظة، ثم توجه إلى أبنائه وقال: حسناً .. وهو يصلى فى الفناء، توجهنا إلى الله بهذه الكلمات:

---

١ - «سورة: البقرة آية «١٣٦ - ١٣٧».
٢ - سورة : البقرة آية «١٤٢ - ١٤٣».

أستحلفك يا الله بالتنزيل العزيز الذى أنزلته ليلة النصف من شعبان عندما أمرت رسولك. هل سألتم ماذا كان يعنى هذا؟.

نظر الصغير عبده إلى أبيه وهو فاغراً فاه. عض حسن على شفتيه وهو مضطرب بسبب جهله.

قال الحاج: عندما ذهبت إلى المدينة أثناء الحج زرت المسجد الذى يطلقون عليه اسم مسجد القبلتين لأن له محرابين.

لقد شرح لنا المطوف الذى كان يرشدنا الأسباب. كان هذا أثناء النصف الثانى من الهجرة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤم الناس فى الصلاة وفى المحراب فى الشمال.. المتجه نحو القدس.. ظهر له الملاك جبريل ونقل له أمر الله بأن يتجه إلى مكة. وفى اللحظة نفسها، توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجنوب وطلب من المؤمنين أن يفعلوا مثله من الآن فصاعداً.

– قال أحد المساعدين: كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى البداية يُولٍّ ظهره إلى مكة فى الصلاة.

– قال الحاج: ليس هناك أى شىء غريب فيما يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم فهو دائماً ما يطيع أوامر الله رب العالمين، رب المشرق والمغرب، وكان الملاك جبريل هو الذى أمره أن يتجه إلى القدس، منذ وصوله إلى المدينة، كما كان يفعل يهود يثرب.

لكن هؤلاء اليهود بعيداً عن الاعتراف بالرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يسخرون منه ومن الصحابة. وكانوا يقولون له: كيف تزعم تأسيس دين جديد بينما أنت تصلى مثلنا؟

وكان هذا إيذاءً موجهاً ضد الإسلام، ويضر بانتشاره بين العرب، لأن البعض كانوا يعتقدون أنه عقيدة يهودية.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه صعوبات فى أداء مهمته،

يعانى من أجلها. لكنه لم يستطع تغيير القبلة من نفسه، فلا يحق لأى فرد أن يفعل ذلك، وكان يتوسل إلى الله كل يوم، واستجاب الله تعالى لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم.

لنستمع إلى كلام القرآن الكريم: عندما تحدث الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾(١)

صدق الله العظيم.

قال الحاج مصطفى: ابتداء من هذا اليوم راح المؤمنون يُصلون وهم يولون وجوههم إلى مكة، كما يوجد فى كل مسجد باب المحراب، الرمز الذى يشير إلى مكة، ومنه تقام الصلاة.

والإيمان الحقيقى هو:

– الذى فرق بين المؤمنين الحقيقيين وبين أهل الكتاب والموجودين فى نفس اللحظات فى العالم بأسره، وهو الذى وجه صلاتهم إلى المسجد الحرام فى مكة، وقد نقل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك إلى الناس. اكتمل قمر النصف من شعبان. لنحتفل إذن فى ورع وسعادة بهذه

---

٢ – سورة : البقرة آية ١٤٣، – ١٤٤،

الليلة المباركة. لن يترك الله أبداً عقيدتنا دون ثواب فهو الرحمن الرحيم.

صعدت النساء على السطح الذى يضيئه القمر المكتمل وكان يرى فى السماء من الناحية الحادة لمئذنة مسجد سيدنا الحسين.

عبَّرت أم زكى قائلة وهى تتأمله: ياله من قمر! إنه جميل مثل وجه الرسول صلى الله عليه وسلم. علينا أن نشكر الله لأنه أعطانا قمراً فى مصر.

– قالت الصغيرة هيفاء: القمر يضىء بقية الدول ياجدتى. وعندما كان عمى عبدالرحمن فى متحف باريس شاهد القمر مثلما نشاهده هنا.

– غير معقول ياابنتى، ربما يكون قد شاهد قمراً صغيراً وليس هذا القمر الكبير لأنهم فى باريس لا يعرفون شهر شعبان، ولا رجب، ولا رمضان، أى الشهور المباركة.

نحن لدينا أجمل قمر كما أننا نسكن أجمل مدينة فى العالم.

– لكن ياأمى، يقولون إن باريس أكبر من القاهرة ثلاث مرات.

– نحن نقدر المدينة ليس وفقاً لعدد سكانها، أو لطول شوارعها ولا ارتفاع منازلها أو الضوضاء الصادرة من السيارات، لكن وفقاً لعدد وقيمة الشيوخ الذين بنوها خلال حياتهم ومن خلال مقابرهم. لهذا فإن دسوق أهم من دمنهور لأن بها مقام سيدى إبراهيم الدسوقى. ولا يوجد أى مدينة فى العالم بها شيوخ يمكن مقارنتهم بشيوخ القاهرة.

– احتجت الست لبيبة التى ترجع أصول عائلتها إلى طنطا قائلة: يوجد السيد البدوى فى طنطا ياأمى.

– أنا لا أفكر فى التقليل من فضائل السيد البدوى شيخ العرب. لقد زرت مقامه عدة مرات ورأيت فى مولده عندما كنت طفلة رجلاً كان

سيموت من آثار كحة فى زوره، وقد تم إنقاذه بفضل الله.

من المؤكد أن السيد البدوى مقامه كبير، لكن يجب أن نعطى لكل شخص الدرجة التى يستحقها، ووفقاً لقبر الرسول نفسه، من الذى يمكنه أن يكون أكثر تسامحاً من أهل عائلته: من سيدنا الحسين حفيده وسيدنا زين العابدين.

هذا فضلاً عن الحديث عن حفيداته، السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية، والسيدة عائشة، وستنا نفيسة، وستنا رقية؟ أنا أعرفهم جميعاً لو أضفتم إلى كل هذا مقابر جميع الشيوخ فى القاهرة، سترون أنه لا توجد أى مدينة يمكن مقارنتها بها عدا مدينة النبى صلى الله عليه وسلم أى المدينة المنورة، ومكة المكرمة. وصلت نساء الجيران الواحدة تلو الأخرى لأن سطح الحاج مصطفى هو أجمل سطح فى الحى. أخذن يتبادلن ما حدث لهن طيلة اليوم.

لقد ملأ العمل الفراغ الطويل، وخصصن اليوم لإعداد الأطباق اللذيذة التى اعتدن على تقديمها فى مثل هذه المناسبة: الحمام المحشى بالأرز، والديك الرومى بالقرفة، والكُسكُى بالبط والكنافة أو البقلاوة. كما يوجد بعض الأكلات التى تتمتع بمزايا خاصة.

– قالت سيدة مسنة: أنا! أنا دائماً ما أعد فى ليلة النصف من شعبان، لقمة القاضى التى تحمينا من عين الحسود.

أكدت سيدة أخرى قائلة: مازالت المهلبية أكثر فاعلية فهى تطرد الكآبة وتعد لعام سعيد أبيض. أعطت الست محفوظة الخالة العجوز وصفة مؤكدة لإبعاد الروح الشريرة وهى نتف ريش الدواجن صباح النصف من شعبان تجلس فى الهواء الطلق وتطيره بعيداً.

هناك العديد من الاعتراضات التى يجب أن تتجنبها العائلة.

رفعت الست لبيبة كتفيها، وهى سيدة خيرة وقالت: الله عادل ويعطى

لكل فرد نصيبه الذى يستحقه من السعادة والألم. عندما ترى العديد من الشحاذين مجتمعين حول الباب فى مثل هذا المنزل، تعرف أنه منزل رجل كريم ومتسامح وأن الله سينشر عليه بركته.

– دائماً يأمرنى الحاج مصطفى زوجى أن أحتفظ بنصيب كبير للفقراء، وهذا أفضل من نشر ريش الفراخ فى الهواء.

رددت الست محفوظة فى حرج من المؤكد يابنتى لابد من إتمام الواجب تجاه الله، وأنا مسلمة وطيبة مثلك.

لكن هذا لا يمنع أن هناك وصفات تطرد العين الشريرة وتجلب البركات والجميع يعرفونها.

فى هذا الوقت كانت الست زنوبة، وهى سيدة سمينة تحاول أن تجد مكاناً بجانب الست فايقة لتتحدث معها، وأخيراً نجحت فى ذلك. قالت لها:

هل أخذت البطة التى أرسلتها لك هذا الصباح؟

– ألف شكر، كما أشكرك على الرقاق والفطائر.

قالت الست فايقة لم نأكل أبداً أكلاً لذيذاً مثل هذا أنت حقاً طباخة ماهرة!

صاحت زنوبة قائلة: لا يجب أن تشكرينى أنا، فأنا لا أضع يدى فى الطعام أو العجين منذ أن كبرت بناتى. فهن اللاتى يفعلن كل شىء: يستيقظن فى الخامسة صباحاً، ويكنسن المنزل ثم يعددن الفطور لأبيهن ثم يدخلن المطبخ.

أقسم بالله أنهن قمن بشواء البطة التى فاحت رائحتها فى جميع أنحاء الشارع. عندما كانت تستوى خرج الناس أمام أبوابهم ليشموا الرائحة. هل شاهدت كم أن الرقاق مورَّق.

كان رقيقاً مثل ورقة السيجارة. والفطائر! تبدو كما لو كانت مشمشاً ذهبياً.

وعندما يطهين ملوخية سأرسل لك منها. لا أحد يجيد طهيها مثلهن، إنها لذيذة وذات رائحة فوّاحة.

كما أنهن يطهين طبق أرز على طريقتهن، إنه لذيذ للغاية: حيث تظل حبات الأرز قوية وبيضاء مثل اللؤلؤ فيمكننا نشرها وجمعها باليد، تنظر باقى السيدات إلى بعضهن وهن يبتسمن. فلا أحد يجهل أن الست زنوبة لديها ثلاث بنات تريد أن تزوجهن، وأن «الست فايقة» لديها ولدان فى سن الزواج، ثم أنها غنية. وكان من عادات النصف من شعبان تبادل الأطباق التى تم إعدادها فى هذا اليوم بين العائلات. ومن الطبيعى أن ترسل الأمهات أفضل ما لديها إلى المنازل التى يوجد بها عريس منتظر لبناتها.

كل شىء مكتوب فى كتاب الله. لكن لابد من كثرة الدعاء.

خاصة فى ليلة النصف من شعبان التى تعد قريبة من ليلة القدر ليلة السابع والعشرين من رمضان.

١٥ أغسطس ٢٠٠٩

روايات الهلال

باتريك موديانو

شارع الحوانيت المعتمة

ترجمة: محمد عبد المنعم جلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

5 سبتمبر 2009

كتاب الهلال

التجديد والحفاظ على الهوية الإسلامية

تأليف

الأستاذ الدكتور: جعفر عبد السلام

روايـة الهـلال تقـدم

البحر أمامها

بقلم
محمد جبريل

يصدر ١٥/١٠/٢٠٠٩

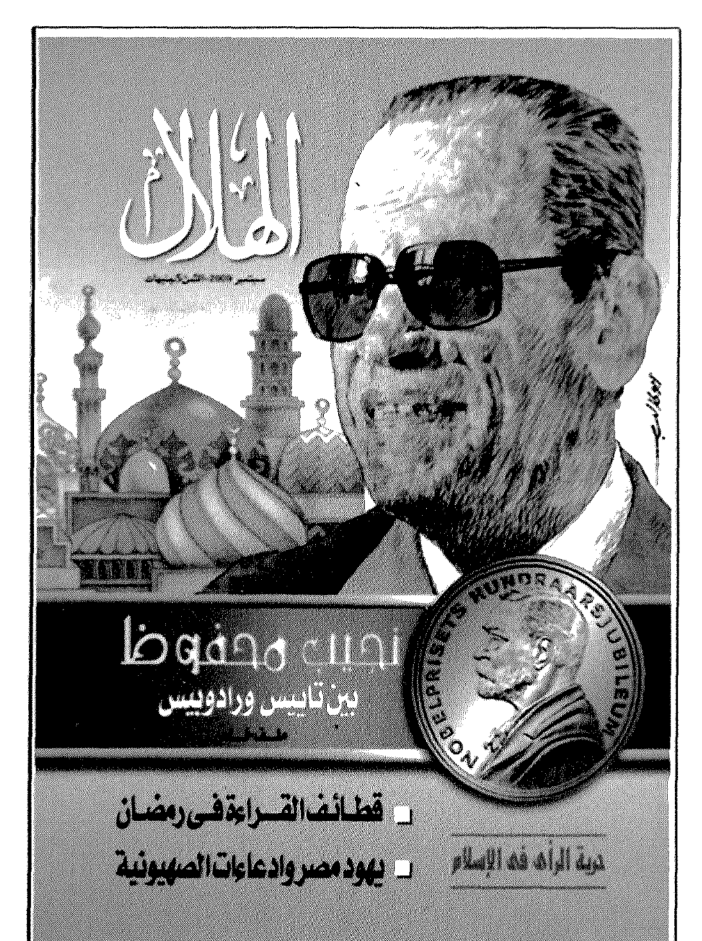
هذه الرواية

❑ هذه الرواية كان يجب أن تترجم إلى اللغة العربية عند صدورها قبل خمسة وخمسين عاما .

لقد ظلت هذه الرواية المصرية المهمة تائهة فى اللغة الفرنسية طوال هذه المدة ، دون أن يقرأها القارئ العربى ، علماً بأن هذه الرواية مكتوبة أساسا من أجل هذا القارئ ، لكن ما ذنب الكاتبة «قوت القلوب الدمرداشية» ، وهى لا تكتب إلا باللغة الفرنسية .

لم يستطع كاتب روائى عربى أن يتوغل داخل مثل هذه الأجواء بنفس الروحانية التى رأيناها هنا ، فيما يتعلق بالشعائر الاجتماعية المتعلقة بجميع المناسبات الدينية الشعبية فى مصر ابتداء من ليلة القدر والحج وليلة عاشوراء، والإسراء والمعراج ، وليلة النصف من شعبان ، إنها شعائر روحانية ، عكست مكانة الدين فى حياة الناس .

إذا أردت أن تعايش التفاصيل بعبقريتها ، اقرأ هذه الرواية المغموسة بالتصوف ، كما عاشت فيه «قوت القلوب الدمرداشية» .

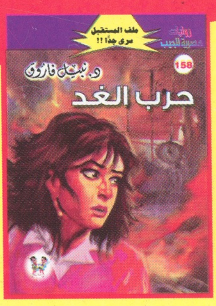


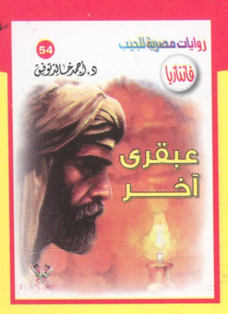
رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

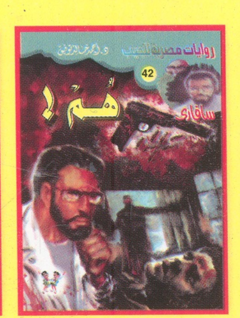
رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

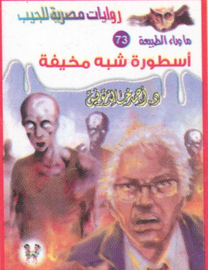
روايات مصرية للجيب













أضخم وأقوى مشروع ثقافى
يقبل عليه القراء فى العالم
العربى بشوق ولهفة وإعجاب

أفضل ما أ
المصري
الروائيين

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22596197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850